

تفسير سورة الأنفال

صرح كثير من المفسرين بأنها مدنية ، ولم يستثنوا منها شيئاً ، وبه قال الحسن وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء . وقد روى مثل هذا عن ابن عباس . أخرجه النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه عنه قال : سورة الأنفال نزلت بالمدينة . وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير . وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن زيد بن ثابت . وأخرج سعيد بن منصور والبخارى وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى بدر . وفى لفظ : تلك سورة بدر (١) .

قال القرطبي : قال ابن عباس : هى مدنية إلا سبع آيات من قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ إلى آخر سبع آيات ، وجملة آيات هذه السورة ست وسبعون آية . وقد كان النبى ﷺ يقرأ بها فى صلاة المغرب كما أخرجه الطبرانى بسند صحيح عن أبى أيوب (٢) . وأخرج أيضاً عن زيد بن ثابت عن النبى ﷺ أنه كان يقرأ فى الركعتين من المغرب بسورة الأنفال (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

الأنفال : جمع نَفْلٍ محرّكاً ، وهو الغنيمة ، ومنه قول عترة :

إنا إذا احمر الوغى نروى القنا ونعف عند تقاسم الأنفال (٤)

أى الغنائم . وأصل النفل : الزيادة . وسميت الغنيمة به ؛ لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرماً على غيرهم . أو لأنها زيادة على ما يحصل للمجاهد من أجر الجهاد . ويطلق النفل على معان أخر منها اليمين ، والابتغاء ، ونبت معروف . والنافلة : التطوع لكونها زائدة على الواجب (٥) . والنافلة : ولد الولد ؛ لأنه زيادة على الولد (٦) .

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٤٥) .

(٢) الطبرانى (٣٨٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع ١٢١/٢ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) الطبرانى (٤٨٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع ١٢١/٢ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) البيت يوجد فى ديوانه من قصيدته المعنونة (من مثل قومى) والى بدأها بقوله :

عفت الديار وباقى الأطلال ربح الصبا وتقلب الأحوال

وقد جاء فى المخطوطة : « مقاسم » والصحيح : « تقاسم » كى يستقيم المعنى .

(٥) النافلة : ما زاد على النصيب أو الحق أو الفرض يقال : هو يصلى النافلة وفى التنزيل العزيز : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

(٦) ومنه قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ [الأنبياء : ٧٢] .

وكان سبب نزول الآية اختلاف الصحابة رضى الله عنهم فى يوم بدر كما سيأتى بيانه ، فترج الله ما غنموه من أيديهم ، وجعله لله والرسول ، فقال : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أى حكمها مختص بهما ، يقسمها بينكم رسول الله عن أمر الله سبحانه ، وليس لكم حكم فى ذلك . وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الأنفال كانت لرسول الله ﷺ خاصة ، ليس لأحد فيها شئ حتى نزل قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسة ﴾ وثم أمرهم بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول بالتسليم لأمرهما ، وترك الاختلاف الذى وقع بينهم ، ثم قال : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى امثلوا هذه الأوامر الثلاثة إن كنتم مؤمنين بالله . وفيه من التهيج والإلهاب ما لا يخفى ، مع كونهم فى تلك الحال على الإيمان ، فكأنه قال : إن كنتم مستمرين على الإيمان بالله ؛ لأن هذه الأمور الثلاثة التى هى : تقوى الله ، وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله والرسول ، لا يكمل الإيمان بدونها ، بل لا يثبت أصلا لمن لم يمثلها ، فإن من ليس بمتقى ، وليس بمطيع لله ورسوله ليس بمؤمن .

وقد أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى الرسول ﷺ ، فقسمه رسول الله بين المسلمين عن بواء . يقول : عن سواء . وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن عبادة بن الصامت ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا . فالتقى الناس فهزم الله العدو . فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنه العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ قسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار فى أرض العدو ، نفل الربع ، وإذا أقبل راجعاً وكل الناس نفل الثلث . وكان يكره الأنفال ويقول : ليرد قوى المسلمين على ضعيفهم^(١) .

وأخرج إسحاق بن راهويه فى مسنده ، وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أيوب الأنصارى

(١) أحمد ٣٢٣/٥ ، ٣٢٤ وقال الهيثمى فى المجمع ٢٩/٧ : « ورجاله ثقات » وابن جرير ١١٦/٩ وصححه الحاكم ١٣٥/٢ ، ١٣٦ : « على شرط مسلم » ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢٩٢/٦ .

قال : بعث رسول الله ﷺ سرية فنصرها الله وفتح عليها ، فكان من أتاه بشيء نفعه من الخمس ، فرجع رجال كانوا يستقدمون ويقتلون ويأسرون ، وتركوا الغنائم خلفهم ، فلم يتألموا من الغنائم شيئاً ، فقالوا : يا رسول الله ، ما بال رجال منا يستقدمون ويأسرون ، وتخلف رجال لم يصلوا بالقتال فنفلتهم بالغنيمة ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ونزل : ﴿ يسألونك عن الأنفال ... ﴾ الآية . فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : « ردوا ما أخذتم ، واقتسموا بالعدل والسوية فإن الله يأمركم بذلك » فقالوا : قد أنفقنا وأكلنا ، فقال : « احتسبوا ذلك » (١) .

وأخرج أحمد وأبو داود ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن سعد ابن أبى وقاص ، قال : قلت : يا رسول الله ، قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف . فقال : « إن هذا السيف لا لك ولا لى . ضعه » . فوضعته ، ثم رجعت قلت : عسى يعطى هذا السيف اليوم من لا يلى بلاتى ، إذا رجل يدعونى من ورائى . قلت : قد أنزل الله فى شيئاً ؟ قال : « كنت سألتنى هذا السيف وليس هو لى ، وإنه قد وهب لى فهو لك » . وأنزل الله هذه الآية : ﴿ يسألونك على الأنفال ﴾ (٢) ، وفى لفظ لأحمد أن سعداً قال : لما قتل أخى يوم بدر ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة (٣) ، فأتيته به رسول الله ﷺ ثم ذكر نحو ما تقدم (٤) . وقد روى هذا الحديث عن سعد من وجوه أخر .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن الناس سألوا رسول الله ﷺ الغنائم يوم بدر فأنزل : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ (٥) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : لم ينفل النبى ﷺ بعد إذ نزلت عليه : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ إلا من الخمس ، فإنه نفل يوم خيبر من الخمس . وأخرج ابن أبى شيبه وأبو داود والنسائى ، وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، قال : لما كان يوم بدر ، قال النبى ﷺ : « من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » . فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : أشركونا معكم فإننا كنا لكم رداءً . ولو كان منكم شيء

(١) عزاه فى المطالب العالية (٣٦٢٨) لإسحاق ، ونقل المحقق عن البوصيرى أنه قال : « رواه إسحاق بسند ضعيف لضعف أصل بن السائب » .

(٢) أحمد ١٧٨/١ وأبو داود فى الجهاد (٢٧٤٠) والترمذى فى التفسير (٣٠٧٩) وقال : « حسن صحيح » . والنسائى فى التفسير (٢١٦) وابن جرير ١١٧/٩ وأبو نعيم فى الحلية ٣١٢/٨ وصححه الحاكم ١٣٢/٢ ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٢٩١/٦ .

(٣) فى المطبوعة : « الكتيفة » بالنون ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة بالناء .

(٤) أحمد ١٨٠/١ . (٥) ابن جرير ١١٨/٩ .

للجائث إلينا . فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت : ﴿ يسألونك عن الأنفال ... ﴾ الآية ، فقسم النبي ﷺ الغنائم بينهم بالسوية (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال : الأنفال : المغانم . كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه به . فمن حبس منه إبرة أو سلكا فهو غلول ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئا فأنزل الله : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله ولرسوله ليس لكم فيها شيء . ﴾ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ إلى قوله : ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ ، ثم أنزل الله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ الآية [الأنفال : ٤١] ، ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولذو القربى ، واليتامى ، والمساكين ، والمهاجرين في سبيل الله ، وجعل أربعة أخماس الناس فيه سواء ، للفرس سهمان . ولصاحبه سهم ، وللراجل سهم (٢) . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال : هي الغنائم ، ثم نسخها : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ الآية .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل . فأعاد المسألة فقال ابن عباس : هذا مثل صبيغ (٣) الذي ضرب عمر . وفي لفظ : فقال : ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ العراقي . وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبه (٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : الأنفال : المغانم . أمروا أن يصلحوا ذات بينهم فيها ، فيرد القوي على الضعيف . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس ، وأبو الشيخ عن عطاء في قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال : هو ما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال ، من عبد أو دابة أو متاع ، فذلك للنبي ﷺ يصنع به ما شاء (٥) .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن عمرو قال : أرسلنا إلى سعيد

(١) أبو داود في الجهاد (٢٧٣٧ ، ٢٧٣٨) والنسائي في التفسير (٢١٧) وابن جرير ١١٦/٩ وابن حبان (٥٠٧١) والحاكم ١٣٢/٢ وقال : « هذا حديث صحيح فقد احتج البخاري بعكرمة ، وقد احتج مسلم بداود بن أبي هند ولم يخرجاه » وقال الذهبي : « هو على شرط البخاري » ، والبيهقي في الدلائل ١٣٦/٣ .

(٢) ابن جرير ١١٨/٩ والبيهقي ٢٩٣/٦ .

(٣) في المخطوطة : « ضبيع » ، بالضاد المعجمة في أوله والعين المهملة في آخره ، والصواب بالصاد المهملة والعين المعجمة على وزن « فعيل » واسمه : صبيغ بن عجل .

(٤) مالك في الجهاد ٤٥٥/٢ وابن أبي شيبة (١٥١٣٤) وابن جرير ١١٥/٩ وقال ابن كثير ٢٧٤/٣ : « إسناده صحيح إلى ابن عباس ، أنه فسر النفل بما ينقله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل الغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل » .

(٥) ابن جرير ١١٤/٩ .

ابن المسيب نسأله عن الأنفال فقال: تسألونى عن الأنفال ، وإنه لا نفل بعد رسول الله ﷺ (١) . وأخرج عبد الرزاق عن سعيد أيضاً قال : ما كانوا ينفلون إلا من الخمس . وروى عبد الرزاق عنه أنه قال : لا نفل فى غنائم المسلمين إلا فى خمس الخمس . وأخرج عبد الرزاق عن أنس أن أميراً من الأمراء أراد أن ينفله قبل أن يخمسه ، فأبى أنس أن يقبله حتى يخمسه . وأخرج ابن أبى شبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن الشعبى فى قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ قال : ما أصابت السرايا (٢) . وأخرج ابن أبى شبة وابن جرير ، والنحاس فى ناسخه عن مجاهد وعكرمة ، قال : كانت الأنفال لله والرسول حتى نسختها آية الخمس : ﴿ واعلموا أننا غنمتم من شىء ﴾ الآية [الأنفال : ٤١] (٣) .

وأخرج ابن أبى شبة ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ قال : هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا الله ، وأن يصلحوا ذات بينهم حيث اختلفوا فى الأنفال . وأخرج ابن أبى حاتم عن مكحول قال : كان صلاح ذات بينهم أن ردت الغنائم ، فقسمت بين من ثبت عند رسول الله ﷺ وبين من قاتل وغنم . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء فى قوله : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ قال : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ .

الوجل : الخوف والفرع . والمراد أن حصول الخوف من الله ، والفرع منه عند ذكره هو من شأن المؤمنين الكاملى الإيمان ، المخلصين لله . فالخصر باعتبار كمال الإيمان ، لا باعتبار أصل الإيمان .

قال جماعة من المفسرين : هذه الآية متضمنة للتحريض على طاعة رسول الله ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم ، ولا يخفاك أن هذا وإن صح إدراجه تحت معنى الآية من جهة أن وجل القلوب عند الذكر ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات الله ، يستلزمان امتثال ما أمر به سبحانه من كون الأنفال لله والرسول . ولكن الظاهر أن مقصود الآية هو إثبات هذه المزية لمن كمل إيمانه من غير تقييد بحال دون حال ، ولا بوقت دون وقت ، ولا بواقعة دون واقعة .

والمراد من تلاوة آياته تلاوة الآيات المنزلة ، أو التعبير عن بديع صنعته ، وكمال قدرته فى آياته التكوينية بذكر خلقها البديع ، وعجائبها التى يخشع عند ذكرها المؤمنون . قيل : والمراد

(٢) ابن أبى شبة (١٥١٣٥) .

(١) ابن جرير ١١٩/٩ .

(٣) ابن جرير ١١٨/٩ .

بزيادة الإيمان هو زيادة انشراح الصدر ، وطمأنينة القلب ، وانشراح الخاطر عند تلاوة الآيات .
وقيل : المراد بزيادة الإيمان زيادة العمل ؛ لأن الإيمان شىء واحد لا يزيد ولا ينقص ^(١) .
والآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة ترد ذلك وتدفعه .

﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ لا على غيره . والتوكل على الله : تفويض الأمر إليه فى جميع الأمور . والموصول فى قوله : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ فى محل رفع ، على أنه وصف للموصول الذى قبله ، أو بدل منه أو بيان له ، أو فى محل نصب على المدح . وخص إقامة الصلاة والصدقة ؛ لكونهما أصل الخير وأساسه . و« من » فى ﴿ مما ﴾ للتبعض .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المتصفين بالأوصاف المتقدمة ، وهو مبتدأ وخبره :
﴿ هم المؤمنون ﴾ أى إن هؤلاء هم الكاملون بالإيمان ، البالغون فيه إلى أعلى درجاته ، وأقصى غاياته . و﴿ حقاً ﴾ مصدر مؤكد لمضمون جملة : ﴿ هم المؤمنون ﴾ أى حق ذلك حقاً ، أو صفة مصدر محذوف ، أى هم المؤمنون إيماناً حقاً . ثم ذكر ما أعد لمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف من الكرامة فقال : ﴿ لهم درجات ﴾ أى منازل خير وكرامة وشرف فى الجنة ، كائنة عند ربهم . وفى كونها عنده سبحانه زيادة تشريف لهم وتكريم ، وتعظيم وتفخيم . وجملة : ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ خبر ثان لـ ﴿ أولئك ﴾ أو مستأنفة جواباً لسؤال مقدر . ﴿ ومغفرة ﴾ معطوف على درجات ، أى مغفرة لذنوبهم . ﴿ ورزق كريم ﴾ يكرمهم الله به من واسع فضله وفائض جوده .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وجلت قلوبهم ﴾ قال : فرقت قلوبهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى الآية قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف المؤمنين فقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فأدوا فرائضه . وأخرج الحكيم الترمذى وابن جرير وأبو الشيخ من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء قالت : إنما الوجل فى القلب كاحتراق السعفة ^(٢) يا شهر بن حوشب ، أما تجد قشعريرة ؟ قلت : بلى . قالت : فادع عندها ، فإن الدعاء يستجاب عند ذلك .

وأخرج الحكيم الترمذى عن ثابت البنانى ، قال : قال فلان : إنى لأعلم متى يستجاب لى . قالوا : ومن أين لك ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيائى ، فذلك حين يستجاب لى . وأخرج أيضاً عن عائشة قالت : ما الوجل فى قلب المؤمن إلا كضربة ^(٣)

(١) مسألة زيادة الإيمان ونقصانه اختلفت حولها الفرق ، والصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة أنه يزيد وينقص . راجع : فتاوى ابن تيمية ، والعقيدة الطحاوية وغيرهما .

(٢) السعفة — بفتحين — : ورق جريد النخل إذا يبس .

(٣) الضربة : الحجرة ، والنار ، والسعفة فى طرفها نار .

السعنة ، فإذا وجل أحدكم فليدع عند ذلك . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهيم بمعصية فيقال له : اتق الله . فييجل قلبه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ قال : تصديقا . وأخرج هؤلاء عن الربيع بن أنس في قوله : ﴿ زادتهم إيماناً ﴾ قال : خشية . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ يقول : لا يرجون غيره .

وأخرج عنه في قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ قال : برئوا من الكفر . وأخرج أبو الشيخ عنه ﴿ حقا ﴾ قال : خالصا . وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ لهم درجات ﴾ يعني : فضائل ورحمة . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ لهم درجات ﴾ قال : أعمال رفيعة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله : ﴿ لهم درجات ﴾ قال : أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه . ولا يرى الذي هو أسفل أنه فضل عليه أحد . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله : ﴿ ومغفرة ﴾ قال : بترك الذنوب . ﴿ ورزق كريم ﴾ قال : الأعمال الصالحة . وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي ، قال : إذا سمعتم الله يقول : ﴿ وزرق كريم ﴾ فهي الجنة .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٨) .

قوله : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، أى الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، أى مثل إخراج ربك . والمعنى : امض لأمرك في الغنائم . ونفل من شئت ، وإن كرهوا ؛ لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا . قال : بقى أكثر الناس بغير شيء . فموضع الكاف نصب كما ذكرنا . وبه قال الفراء . وقال أبو عبيدة : هو قسم ، أى والذي أخرجك . فالكاف بمعنى الواو . و« ما » بمعنى الذى . وقال الأخفش سعيد ابن مسعدة : المعنى : أولئك هم المؤمنون حقا كما أخرجك ربك . وقال عكرمة : المعنى : أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك ربك .

وقيل : ﴿ كما أخرجك ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لهم درجات ﴾ أى هذا الوعد للمؤمنين حق فى الآخرة . ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ الواجب له ، فأنجز وعدك وظفرك بعدوك ، وأوفى لك . ذكره النحاس واختاره . وقيل : الكاف فى ﴿ كما ﴾ كاف التشبيه على سبيل المجازاة كقول القائل لبعده : كما وجهتك إلى أعدائى فاستضعفوك وسألت مدداً فأمددتك وقويتك ، وأزحت علتك ، فخذهم الآن فعاقبهم . وقيل : إن الكاف فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجهم للحرب ، ذكره صاحب الكشف (١) .

و﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف ، والتقدير : إخراجاً متلبساً بالحق الذى لا شبهة فيه . وجملة : ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى كما أخرجك فى حال كراحتهم لذلك ؛ لأنه لما وعدهم الله إحدى الطائفتين إما العير أو النفير ، رغبوا فى العير لما فيها من الغنيمة ، والسلامة من القتال ، كما سيأتى بيانه .

وجملة : ﴿ يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ﴾ إما فى محل نصب على أنها حال بعد حال ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدر . ومجادلتهم لما نذبهم إلى إحدى الطائفتين ، وفات العير ، وأمرهم بقتال النفير ، ولم يكن معهم كثير أهبة ، لذلك شق عليهم وقالوا : لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة ، وأكملنا الأهبة . ومعنى : ﴿ فى الحق ﴾ أى فى القتال بعد ما تبين لهم أنك لا تأمر بالشئ إلا بإذن الله ، أو بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم بالظفر بإحدى الطائفتين . وأن العير إذا فاتت ظفروا بالنفير . و﴿ بعد ﴾ ظرف ليجادلونك . و﴿ ما ﴾ مصدرية ، أى يجادلونك بعد ما تبين الحق لهم .

قوله : ﴿ كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ الكاف فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ لكارهون ﴾ أى حال كونهم فى شدة فزعهم من القتال ، يشبهون حال من يساق ليقتل ، وهو مشاهد لأسباب قتله ناظر إليها لا يشك فيها .

قوله : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر ، أى واذكروا وقت وعد الله إياكم إحدى الطائفتين . وأمرهم بتذكير الوقت مع أن المقصود ذكر ما فيه من الحوادث بقصد المبالغة . والطائفتان هما : العير والنفير . و﴿ إحدى ﴾ هو ثانى مفعولى ﴿ يعد ﴾ و﴿ أنها لكم ﴾ بدل منه بدل اشتمال . ومعناه : أنها مسخرة لكم ، وأنكم تغلبونها وتغنمون منها ، وتصنعون بها ما شئتم من قتل وأسر وغنيمة ، لا يطيقون لكم دفعاً ، ولا يملكون لأنفسهم منكم ضرراً ولا نفعاً . وفى هذه الجملة تذكير لهم بنعمة من النعم التى أنعم الله بها عليهم .

قوله : ﴿ وتودون ﴾ معطوف على ﴿ يعدكم ﴾ من جملة الحوادث التى أمروا بذكر وقتها . ﴿ أن غير ذات الشوكة ﴾ من الطائفتين ، وهى طائفة العير ﴿ تكون لكم ﴾ دون ذات الشوكة ، وهى طائفة النفير ، أى غير ذات الحد . والشوكة : السلاح . والشوكة : النبت الذى له حد . ومنه رجل شائك السلاح ، أى حديد السلاح . ثم يقلب فيقال : شاكى السلاح . فالشوكة مستعارة من واحدة الشوك . والمعنى : وتودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح ، وهى طائفة العير لأنها غنيمة صافية عن كدر القتال ، إذ لم يكن معها من يقوم بالدفع عنها .

قوله : ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ معطوف على ﴿ تودون ﴾ وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته ، أى ويريد الله غير ما تريدون ، وهو أن يحق الحق بظاهره ، لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة ، وقتلهم لصناديدهم وأسر كثير منهم ، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التى أجلبوا بها عليكم ، وراموا دفعكم بها . والمراد بالكلمات : الآيات التى أنزلها فى محاربة ذات الشوكة ، ووعدكم منه بالظفر بها . ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ الدابر : الآخر . وقطعه عبارة عن الاستئصال ، والمعنى : ويستأصلهم جميعاً .

قوله : ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ﴾ هذه الجملة علة لما يريد الله ، أى أراد ذلك ، أو يريد ذلك ليظهر الحق ويرفعه ﴿ ويبطل الباطل ﴾ ويضعه ، أو اللام متعلقة بمحذوف ، أى فعل ذلك ليحق الحق . وقيل : متعلق بـ ﴿ يقطع ﴾ وليس فى هذه الجملة تكرير لما قبلها ؛ لأن الأولى لبيان التفاوت فيما بين الإرادتين . وهذه لبيان الحكمة الداعية إلى ذلك ، والعلة المقتضية له . والمصلحة المترتبة عليه . وإحقاق الحق : إظهاره . وإبطال الباطل : إعدامه . ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ [الأنبياء : ١٨] ومفعول ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ محذوف ، أى ولو كرهوا أن يحق الحق ، ويبطل الباطل . والمجرمون هم المشركون من قريش ، أو جميع طوائف الكفار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال لنا رسول الله ﷺ ، ونحن بالمدينة ، وبلغه أن عير أبى سفيان قد أقبلت فقال : « ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا » ، فخرجنا ، فلما سرنا يوماً أو يومين ، أمرنا رسول الله ﷺ أن نتعاد ، ففعلنا . فإذا نحن ثلاثمائة وثلاثة عشر ، فأخبرنا النبى ﷺ بعدتنا ، فسر بذلك وحمد الله وقال : « عدة أصحاب طالوت » . فقال : « ما ترون فى قتال القوم ، فإنهم قد أخبروا بمخرجكم » . فقلنا : يا رسول الله ، لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم ، إنما خرجنا للعير ، ثم قال : « ما ترون فى قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك . فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا

قاعدون ﴿ [المائدة : ٢٤] فأنزل الله : ﴿ كما أخرجك ربك ﴾ إلى قوله : ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾ . فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما القوم ، وإما العير ، طابت أنفسنا . ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أنشدك وعدك » . فقال ابن رواحة : يا رسول الله ، إني أريد أن أشير عليك ، ورسول الله ﷺ أفضل من أن يشير عليه : إن الله أجل وأعظم من أن تنشده وعده . فقال : « يا بن رواحة ، لأنشدن الله وعده ، فإن الله لا يخلف الميعاد » . فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه القوم فانهمزموا . فأنزل الله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فقتلنا وأسرننا ، فقال عمر : يا رسول الله ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن داعون مؤلفون ، فقلنا : يا معشر الأنصار ، إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا . فقام رسول الله ﷺ ثم استيقظ فقال : « ادعوا لى عمر » . فدعى له ، فقال : « إن الله قد أنزل على » : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى ﴾ الآية [الأنفال : ٦٧] . وفى إسناده ابن لهيعة ، وفيه مقال معروف ^(١) .

وأخرج ابن أبى شبة فى المصنف ، وابن مردويه عن محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، بلغنا أنهم كذا وكذا ، ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبى بكر . ثم خطب الناس فقال : « كيف ترون ؟ » فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ، إيانا تريد ، فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ، ولا لى بها علم ، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن ، لنسيرن معك ، ولا نكونن كالذين قالوا لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر ، وأحدث الله إليك غيره ، فانظر الذى أحدث الله إليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فنزل القرآن على قول سعد : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ إلى قوله : ﴿ ويقطع دابر الكافرين ﴾ وإنما كان رسول الله ﷺ يريد الغنيمة مع أبى سفيان ، فأحدث الله إليه القتال .

وأخرج ابن أبى شبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ قال : كذلك يجادلونك فى خروج القتال . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ قال : السدى فى قوله : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ﴾ قال : خروج

(١) الطبرانى (٤٠٥٦) وقال الهيثمى فى المجمع : ٧٦/٦ « إسناده حسن » وقال محقق الطبرانى : « قلت ليس بحسن لأن فى إسناده ابن لهيعة ، والراوى عنه من غير العبدالة » .

النبي ﷺ إلى بدر ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ قال : لطلب المشركين . ﴿ يَجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ إنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ قال : هي غير أبي سفيان . وذو أصحاب محمد ﷺ أن العير كانت لهم ، وأن القتال صرف عنهم . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة : ﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى شأفتهم . ووقعة بدر قد اشتملت عليها كتب الحديث ، والسير ، والتاريخ مستوفاة ، فلا نطيل بذكرها .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿ (١٠) ﴾

قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكروا وقت استغاثتكم . وقيل : بدل من : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ ﴾ معمول لعامله . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ لِيَحِقَّ الْحَقُّ ﴾ والاستغاثة طلب الغوث . يقال : استغاثنى فلان فأغثته . والاسم : الغياث . والمعنى أن المسلمين لما علموا أنه لا بد من قتال الطائفة ذات الشوكة ، وهم النفير كما أمرهم الله بذلك ، وأرادهم منهم ، ورأوا كثرة عدد النفير ، وقلة عددهم ، استغاثوا بالله سبحانه . وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن عدد المشركين يوم بدر ألف ، وعدد المسلمين ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً ، وأن النبي ﷺ لما رأى ذلك ، استقبل القبلة ، ثم مَدَّ يَدَيْهِ فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » (١) الحديث ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ عطف على ﴿ تَسْتَغِيثُونَ ﴾ داخل معه فى التذكير ، وهو وإن كان مستقبلاً فهو بمعنى الماضى . ولهذا عطف عليه ﴿ استجاب ﴾ .

قوله : ﴿ أَنَّى مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ أى بأتى ممدكم فحذف حرف الجر ، وأوصل الفعل إلى المفعول . وقرئ بكسر الهمزة على إرادة القول ، أو على أن فى ﴿ استجاب ﴾ معنى القول .

قوله : ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ قرأ نافع بفتح الدال اسم مفعول . وقرأ الباقون بكسرها اسم فاعل . وانتصابه على الحال . والمعنى على القراءة الأولى : أنه جعل بعضهم تابعاً لبعض . وعلى القراءة الثانية : أنهم جعلوا بعضهم تابعاً لبعض . وقيل : إن ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ على القراءتين نعت

لألف . وقيل : إنه على القراءة الأولى حال من الضمير المنصوب فى ﴿ ممدكم ﴾ أى ممدكم فى حال إردافكم بألف من الملائكة . وقد قيل : إن ردف وأردف بمعنى واحد . وأنكره أبو عبيدة قال : لقوله تعالى : ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ [النازعات : ٧] ولم يقل المردفة . قال سيويه : وفى الآية قراءة ثالثة وهى : « مردفين » بضم الراء وكسر الدال مشددة ، وقراءة رابعة بفتح الراء وتشديد الدال ، وقرأ جعفر بن محمد وعاصم الجحدري : « بآلاف » جمع ألف ، وهو الموافق لما تقدم فى آل عمران .

والضمير فى ﴿ وما جعله الله ﴾ راجع إلى الإمداد المدلول عليه بقوله : ﴿ أنى ممدكم ﴾ . ﴿ إلا بشرى ﴾ أى إلا بشارة لكم بنصره ، وهو استثناء مفرغ ، أى ما جعل إمدادكم لشيء من الأشياء إلا للبشرى لكم بالنصر . ﴿ ولتطمئن به ﴾ أى بالإمداد قلوبكم . وفى هذا إشعار بأن الملائكة لم يقاتلوا ، بل أمد الله المسلمين بهم للبشرى لهم ، وتطمئن قلوبهم ، وتثبتها . واللام فى ﴿ لتطمئن ﴾ متعلقة بفعل محذوف يقدر متأخراً ، أى ولتطمئن قلوبكم فعل ذلك لا لشيء آخر . ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ لا من عند غيره ، ليس للملائكة فى ذلك أثر ، فهو الناصر على الحقيقة ، وليسوا إلا سبباً من أسباب النصر التى سببها الله لكم ، وأمدكم بها . ﴿ إن الله عزيز ﴾ لا يعالب ﴿ حكيم ﴾ فى كل أفعاله .

وقد أخرج ابن جرير عن على رضى الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ . وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ ، وأنا فى الميسرة . وأخرج سنيد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ما أمد النبى ﷺ بأكثر من هذه الألف التى ذكر الله فى الأنفال ، وما ذكر الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف إلا بشرى .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مردفين ﴾ قال : متتابعين . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ مردفين ﴾ يقول : المدد . وأخرج ابن أبى حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عنه أيضاً فى الآية قال : وراء كل ملك ملك . وأخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين ، فكانوا أربعة آلاف ، وهم مدد المسلمين فى ثغورهم . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ مردفين ﴾ قال : مجدين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : متتابعين ، أمدهم الله بألف ، ثم بثلاثة ثم أكملهم خمسة آلاف . ﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ لكم ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ قال : يعنى نزول الملائكة . قال : وذكر لنا أن عمر قال : أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة كانوا معنا . وأما بعد ذلك فإله أعلم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد ﴿ مردفين ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بَأْنَهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) .

قوله : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر كالذى قبله ، أو بدل ثان من ﴿ إِذْ يُعَذِّبُكُمْ ﴾ أو منصوب بالنصر المذكور قبله . وقيل غير ذلك عما لا وجه له . و ﴿ يُغَشِّيكُم ﴾ هى قراءة نافع وأهل المدينة على أن الفاعل هو الله سبحانه . وهذه القراءة هى المطابقة لما قبلها . أعنى قوله : ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ ولما بعدها أعنى : ﴿ وينزل عليكم ﴾ فيتشاكل الكلام ويتناسب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : « يغشاكم » على أن الفاعل للنعاس . وقرأ الباقون : ﴿ يغشيكُم ﴾ بفتح الغين وتشديد الشين ، وهى كقراءة نافع وأهل المدينة فى إسناد الفعل إلى الله ، ونصب النعاس . قال مكى : والاختيار ضم الياء والتشديد ، ونصب النعاس لأن بعده ﴿ أَمْنَةً مِنْهُ ﴾ . والهاء فى ﴿ مِنْهُ ﴾ لله ، فهو الذى يغشيهما النعاس ، ولأن الأكثر عليه ، وعلى القراءة الأولى والثالثة يكون انتصاب ﴿ أَمْنَةً ﴾ على أنها مفعول له . ولا يحتاج فى ذلك إلى تأويل وتكلف ؛ لأن فاعل الفعل المعلن والعلة واحد ، بخلاف انتصابها على العلة باعتبار القراءة الثانية ، فإنه يحتاج إلى تكلف . وأما على جعل الأمانة مصدراً فلا إشكال . يقال : أمن أمانة وأمناً وأماناً . وهذه الآية تتضمن ذكر نعمة أنعم الله بها عليهم ، وهى أنهم مع خوفهم من لقاء العدو والمهابة لجانبه ، سكن الله قلوبهم وأمنها حتى ناموا آمنين غير خائفين ، وكان هذا النوم فى الليلة التى كان القتال فى غدها . قيل : وفى استئان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان : أحدهما : أنه قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد . الثانى : أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم . وقيل : إن النوم غشيهما فى حال التقاء الصفين . وقد مضى فى يوم أحد نحو من هذا فى سورة آل عمران .

قوله : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ هذا المطر كان بعد النعاس . وقيل : قبل النعاس . وحكى الزجاج أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر ، فترلوا عليه ، وبقي المؤمنون لا ماء لهم ، فأنزل الله المطر ليلة بدر . والذى فى سيرة ابن إسحاق وغيره أن المؤمنين هم الذين سبقوا إلى ماء بدر ، وأنه منع قريشا من السبق إلى الماء مطر عظيم ، ولم يصب المسلمين منه إلا ما شد لهم دهس (١) الوادى ، وأعانهم على المسير (٢) .

(١) الدهس : المكان السهل اللين ليس برمل ولا تراب ولا طين ، والأرض لا يغلب عليها لون الأرض ، ولا لون النبات . اللسان ٨٩/٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ .

ومعنى ﴿ ليطهركم به ﴾ : ليرفع عنكم الأحداث ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أى وسوسته لكم ، بما كان قد سبق إلى قلوبهم من الخواطر التى هى منه من الخوف والفشل حتى كانت حالهم حال من يساق إلى الموت . ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ فيجعلها صابرة قوية ثابتة فى مواطن الحرب . والضمير فى ﴿ به ﴾ من قوله : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ راجع إلى الماء الذى أنزله الله ، أى يثبت بهذا الماء الذى أنزله عليكم عند الحاجة إليه أقدامكم فى مواطن القتال . وقيل : الضمير راجع إلى الرابط المدلول عليه بالفعل .

قوله : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ﴾ الظرف منصوب بفعل محذوف خاص بالنبي ﷺ ؛ لأنه لا يقف على ذلك سواه ، أى واذكر يا محمد وقت إحياء ربك إلى الملائكة . وقيل : هو بدل من ﴿ إذ يعدكم ﴾ كما تقدم . ولكنه يأبى ذلك أن هذا لا يقف عليه المسلمون ، فلا يكون من جملة النعم التى عددها الله عليهم . وقيل : العامل فيه يثبت ، فيكون المعنى يثبت الأقدام وقت الوحى ، وليس لهذا التقييد معنى . وقيل : العامل فيه ﴿ ليربط ﴾ ولا وجه لتقييد الربط على القلوب بوقت الإحياء . ومعنى الآية : إنى معكم بالنصر والمعونة . فعلى قراءة الفتح للهمزة هو مفعول ﴿ يوحى ﴾ وعلى قراءة الكسر يكون بتقدير القول . ومعنى ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ : يشروهم بالنصر ، أو ثبتوهم على القتال بالخصوم معهم ، وتكثير سوادهم . وهذا أمر منه سبحانه للملائكة الذين أوحى إليهم بأنه معهم . والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

قوله : ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ قد تقدم بيان معنى إلقاء الرعب فى آل عمران . قيل : هذه الجملة تفسير لقوله : ﴿ إنى معكم ﴾ . قوله : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ قيل : المراد : الأعناق أنفسها . و﴿ فوق ﴾ زائدة . قاله الأخفش وغيره . وقال محمد بن يزيد : هذا خطأ ؛ لأن ﴿ فوق ﴾ يفيد معنى ، فلا يجوز زيادتها ، ولكن المعنى أنه أبيع لهم ضرب الوجوه وما قرب منها . وقيل : المراد بما فوق الأعناق : الرؤوس . وقيل : المراد بفوق الأعناق أعاليها ؛ لأنها المفاصل الذى يكون الضرب فيها أسرع إلى القطع . قيل : وهذا أمر للملائكة . وقيل : للمؤمنين . وعلى الأول قيل : هو تفسير لقوله : ﴿ فثبتوا الذين آمنوا ﴾ .

قوله : ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال الزجاج : واحد البنان : بنانة . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء ، والبنان مشتق من قولهم : أبى الرجل بالمكان . إذا أقام به ؛ لأنه يعمل بها ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين ، والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب . فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال ، بخلاف سائر الأعضاء . قال عترة :

وقد كان فى الهيجاء يحمى ذمارها ويضرب عند الكرب كل بنان

وقال عترة أيضا :

وإن الموت طوع يدي إذا ما وصلت بنانها بالهندوانى

قال ابن فارس : البنان : الأصابع . ويقال : الأطراف ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما وقع عليهم من القتل ، ودخل في قلوبهم من الرعب ، وهو مبتدأ . و﴿ بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ خبره ، أى ذلك بسبب مشاقتهم . والشقاق أصله أن يصير كل واحد من الخصمين فى شق . وقد تقدم تحقيق ذلك . ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ﴾ له ، يعاقبه بسبب ما وقع منه من الشقاق .

قوله : ﴿ ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من العقاب ، أو الخطاب هنا للكافرين ، كما أن الخطاب فى قوله : ﴿ ذلكم ﴾ للنبي ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب . قال الزجاج : ذلكم رفع بإضمار الأمر أو القصة . أى الأمر أو القصة ذلكم فذوقوه . قال : ويجوز أن يضمّر واعلموا . قال فى الكشف : ويجوز أن يكون نصباً على عليكم ذلكم فذوقوه ، كقولك : زيدا فاضرب به . قال أبو حيان : لا يجوز تقدير : عليكم لأنه اسم فعل ، وأسماء الأفعال لا تضمّر ، وتشبيهه بـ : زيدا فاضربه غير صحيح ؛ لأنه لم يقدر فيه عليك ، بل هو من باب الاشتغال . وجملة : ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ معطوفة على ما قبلها فتكون الإشارة على هذا إلى العقاب العاجل الذى أصيبوا به ، ويكون ﴿ وأن للكافرين عذاب النار ﴾ إشارة إلى العقاب الآجل .

وقد أخرج أبو يعلى والبيهقى فى الدلائل عن على قال : ما كان فىنا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فىنا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شهاب فى الآية ، قال : بلغنا أن هذه الآية أنزلت فى المؤمنين يوم بدر فيما أغشاهم الله من النعاس أمنة منه . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ أمنة منه ﴾ قال : أمنة من الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ أمنة منه ﴾ قال : رحمة منه أمنة من العدو . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : النعاس فى الرأس ، والنوم فى القلب . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً قال : كان النعاس أمنة من الله ، وكان النعاس نعاسين : نعاس يوم بدر ، ونعاس يوم أحد .

وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب فى قوله : ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ﴾ قال : طش (٢) كان يوم بدر . وأخرج هؤلاء عن مجاهد فى الآية ، قال : المطر أنزله الله عليهم قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار ، والتبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، وثبتت به أقدامهم . وأخرج ابن أبى حاتم وابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء ، وكان الوادى دهساً ، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد الأرض ، ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : إن المشركين

(١) البيهقى فى الدلائل ٣/ ٣٩ .

(٢) الطش : المطر القليل وهو فوق الرذاذ . اللسان ٦/ ٣١١ .

غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء ، فضحى المسلمون وصلوا مجنين محدثين ، فالتقى الشيطان فى قلوبهم الحزن ، وقال : أتزعمون أن فيكم نبياً وأنكم أولياء الله ، وتصلون مجنين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وثبتت أقدامهم ، وذهبت وسوسته ^(١) . وقد قدمنا أن المشهور فى كتب السير المعتمدة أن المشركين لم يغلبوا المؤمنين على الماء ، بل المؤمنون هم الذين غلبوا عليه من الابتداء . وهذا المروى عن ابن عباس فى إسناذه العوفى ، وهو ضعيف جداً.

وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ رجز الشيطان ﴾ قال : وسوسته . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ قال : بالصبر ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ قال : كان بطن الوادى دهاساً ، فلما مطروا اشتدت الرملة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ قال : حتى تشد على الرمل ، وهو كهية الأرض . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن على قال : كان رسول الله ﷺ يصلى تلك الليلة ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد » ، وأصابهم تلك الليلة مطر شديد ، فذلك قوله : ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ ^(٢) .

وأخرج ابن أبى شيبه عن مجاهد قال : لم تقا تل الملائكة إلا يوم بدر . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف قال : قال لى أبى : يا بنى ، لقد رأيتنا يوم بدر وإن ألدنا ليشير بسيفه إلى رأس المشرك ، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس قال : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب على الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق به . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ يقول : الرؤوس . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطية ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ قال : اضربوا الأعناق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك ﴿ فاضربوا فوق الأعناق ﴾ يقول : اضربوا الرقاب .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال : يعنى بالبنان الأطراف . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطية ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ قال : كل مفصل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥ ﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦

(١) ابن جرير ١٣١/٩ .

(٢) ابن جرير ١٣٠/٩ .

فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴿

الزحف : الدنو قليلا قليلا . وأصله الاندفاع على الألية . ثم سمي كل ماش فى الحرب إلى آخر زاحفاً . والتزاحف : التدانى والتقارب . تقول : زحف إلى العدو زحفاً ، وازدحف القوم ، أى مشى بعضهم إلى بعض ، وانتصاب ﴿ زحفاً ﴾ إما على أنه مصدر لفعل محذوف ، أى تزحفون زحفاً ، أو على أنه من المؤمنين ، أى حال كونكم زاحفين إلى الكفار ، أو حال من الذين كفروا ، أى حال كون الكفار زاحفين إليكم ، أو حال من الفريقين ، أى متزاحفين .

﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ نهى الله المؤمنين أن ينهزموا عن الكفار إذا لقوهم ، وقد دب بعضهم إلى بعض للقتال ، فظاهر هذه الآية العموم لكل المؤمنين فى كل زمن ، وعلى كل حال إلا حالة التحرف والتحيز . وقد روى عن عمر وابن عمر^(١) وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى نضرة وعكرمة ونافع والحسن وقتادة وزيد بن أبى حبيب والضحاك ؛ أن تحريم الفرار من الزحف فى هذه الآية مختص بيوم بدر . وأن أهل بدر لم يكن لهم أن ينحازوا ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين ؛ إذ لم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم ، ولا لهم فئة إلا النبى ﷺ . فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض . وبه قال أبو حنيفة . قالوا : ويؤيده قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ فإنه إشارة إلى يوم بدر . وقيل : إن هذه الآية منسوخة بآية الضعف . وذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية محكمة عامة غير خاصة ، وأن الفرار من الزحف محرم ، ويؤيد هذا أن هذه الآية نزلت بعد انقضاء الحرب فى يوم بدر .

وأجيب عن قول الأولين : بأن الإشارة فى ﴿ يومئذ ﴾ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيد السياق ، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف ، بل هذه الآية مقيدة بها ، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله فى آية الضعف . ولا وجه لما ذكره من أنه لم يكن فى الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها ، فقد كان فى المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبى ﷺ بالخروج لأنه ﷺ . ومن خرج معه لم يكونوا يرون فى الابتداء أنه سيكون قتال . ويؤيد هذا ورود الأحاديث الصحيحة المصرحة بأن الفرار من الزحف من جملة الكبائر كما فى حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات » . وفيه : « والتولى يوم الزحف »^(٢) . ونحوه من الأحاديث . وهذا البحث تطول ذيوله وتتشعب طرقه ، وهو مبين فى مواطنه . قال ابن عطية :

(١) وحديث ابن عمر حديث حسن تفرد به النسائي فى التفسير (٢٢٠) وقال ابن جرير ١٣٥/٩ : « وأولى التأويلين فى هذه الآية بالصواب عندى قول من قال حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهل بدر وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين ، وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف لقتال أو لتحيز إلى فئة » .

(٢) الحديث عن أبى هريرة أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٧٦٦) وفى الطب (٥٧٦٤) وفى الحدود (٦٨٥٧) ومسلم فى الإيمان (١٤٥/٨٩) وأبو داود فى الوصايا (٢٨٧٤) والنسائي فى الكبرى فى الوصايا (٣٦٧١) وفى التفسير (٣٨١) .

والأدبار : جمع دبر . والعبارة بالدبر فى هذه الآية متمكنة فى الفصاحة لما فى ذلك من الشناعة على الفارّ والذم له .

قوله : ﴿ إلا متحرفا لقتال ﴾ التحرف : الزوال عن جهة الاستواء ، والمراد به هنا : التحرف من جانب إلى جانب فى المعركة طلبا لمكائد الحرب وخدعا للعدو ، وكمن يوهم أنه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكائد الحرب ، فإن الحرب خدعة .

قوله : ﴿ أو متحيزا إلى فئة ﴾ أى إلى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو . وانتصاب ﴿ متحرفا ﴾ و﴿ متحيزا ﴾ على الاستثناء من المولين ، أى ومن يولهم دبره إلا رجلا منهم متحرفا أو متحيزا . ويجوز انتصابهما على الحال ، ويكون حرف الاستثناء لغوا لا عمل له . وجملة : ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ جزاء للشرط ، والمعنى : من ينهزم ويفر من الزحف فقد رجع بغضب كائن من الله إلا المتحرف والمتحيز . ﴿ وماؤاه جهنم ﴾ أى المكان الذى يأوى إليه هو النار . ففراره أوقعه إلى ما هو أشد بلاء مما فر منه وأعظم عقوبة . والمأوى : ما يأوى إليه الإنسان . ﴿ ويئس المصير ﴾ ما صار إليه من عذاب النار . وقد اشتملت هذه الآية على الوعيد الشديد لمن يفر عن الزحف ، وفى ذلك دلالة على أنه من الكبائر الموبقة .

قوله : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أى إذا عرفتم ما قصه الله عليكم من إمداده لكم بالملائكة ، وإيقاع الرعب فى قلوبهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم بما يسره لكم من الأسباب الموجبة للنصر .

قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الرمى على أقوال : فروى عن مالك أن المراد به : ما كان منه ﷺ فى يوم حنين ، فإنه رمى المشركين بقبضة من حصباء الوادى ، فأصاب كل واحد منهم . وقيل : المراد به : الرمية التى رمى رسول الله ﷺ أبى بن خلف بالحرية فى عنقه فانهزم ومات منها . وقيل : المراد به السهم الذى رمى به رسول الله ﷺ فى حصن خيبر ، فسار فى الهوى حتى أصاب ابن أبى الحقيق وهو على فراشه .

وهذه الأقوال ضعيفة ، فإن الآية نزلت عقب وقعة بدر . وأيضا المشهور فى كتب السير والحديث فى قتل ابن أبى الحقيق أنه وقع على صورة غير هذه الصورة . والصحيح كما قال ابن إسحاق وغيره أن المراد بالرمي المذكور فى هذه الآية : هو ما كان منه ﷺ فى يوم بدر ، فإنه أخذ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه المشركين ، فأصاب كل واحد منهم ودخلت فى عينيه ومنخره وأنفه (١) .

قال ثعلب : المعنى : ﴿ وما رميت ﴾ الفرع والرعب فى قلوبهم ﴿ إذ رميت ﴾ بالحصباء فانهزموا . ﴿ ولكن الله رمى ﴾ أى أعانك وأظفرك ، والعرب تقول : رمى الله لك ، أى أعانك وأظفرك وصنع لك . وقد حكى مثل هذا أبو عبيدة فى كتاب المجاز . وقال محمد بن

يزيد المبرد : المعنى : ﴿ وما رميت ﴾ بقوتك ﴿ إذ رميت ﴾ ولكنك بقوة الله رميت .

وقيل : المعنى : إن تلك الرمية بالقبضة من التراب التي رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ؛ لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله ﷺ ؛ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه ؛ لأن أثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكأن الله فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من رسول الله ﷺ أصلاً . هكذا في الكشف ^(١) .

قوله : ﴿ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ البلاء هاهنا : النعمة . والمعنى : ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً . واللام متعلقة بمحذوف ، أى وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره . أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها ، أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً . ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ لدعائهم ، عليم بأحوالهم . والإشارة بقوله : ﴿ ذلكم ﴾ إلى البلاء الحسن ، وهو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى الغرض ﴿ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾ أى إن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين . وقيل : المشار إليه القتل والرمى . وقد قرئ بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين ، وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة ، والكيد : المكر ، وقد تقدم بيانه .

وقد أخرج البخارى فى تاريخه ، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن نافع ؛ أنه سأل ابن عمر قال : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة أمامنا أو عسكرنا ؟ فقال لى : الفئة رسول الله ﷺ ، فقلت : إن الله يقول : ﴿ إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولولهم الأدبار ﴾ قال : إنما نزلت هذه الآية فى أهل بدر ، لا قبلها ولا بعدها ^(٢) . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والنحاس فى ناسخه ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى فى قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ... ﴾ الآية ، قال : إنها كانت لأهل بدر خاصة ^(٣) . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال : لا تغرنكم هذه الآية ، فإنما كانت يوم بدر ، وأنا فئة لكل مسلم ^(٤) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : نزلت فى أهل

(١) الكشف ٢٠٧/٢ .

(٢) النسائى فى التفسير (٢٢٠) وإسناده حسن ورجاله ثقات غير حسان بن عبد الله بن سهل الكندى المصرى فهو صدوق بخطئ .

(٣) أبو داود فى الجهاد (٢٦٤٨) والنسائى فى التفسير (٢٢٣ ، ٢٢٤) وابن جرير ١٣٤/٩ ، وصححه الحاكم ٣٢٧/٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وابن الجوزى فى نواسخ القرآن ص ٣٤٥ ، وسنده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

(٤) ابن جرير ١٣٥/٩ .

بدر خاصة ، ما كان لهم أن ينهزموا عن رسول الله ﷺ . ويتركوه . وقد روى اختصاص هذه الآية بأهل بدر عن جماعة من التابعين ومن بعدهم . وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله : ﴿ إلا متحرفا لقتال ﴾ يعنى مستطرذا يريد الكرة على المشركين . ﴿ أو متحيزا إلى فئة ﴾ يعنى أو ينحاز إلى أصحابه من غير هزيمة ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ يقول : استوجبوا سخطا من الله ﴿ ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ فهذا يوم بدر خاصة ، كان شديدا على المسلمين يومئذ ليقطع دابر الكافرين ، وهو أول قتال قاتل المشركين من أهل مكة . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ، قال : المتحرف : المتقدم من أصحابه أن يرى عورة من العدو فيصيبها . والمتحيز : الفار إلى رسول الله ﷺ ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال : هذه الآية منسوخة بالآية التي في الأنفال : ﴿ الآن خفف الله عنكم ﴾ ^(١) الآية [الأنفال : ٦٦] .

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ، والبخارى في الأدب المفرد واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى في شعب الإيمان عن ابن عمر قال : كنا في غزاة فحاص الناس حيصة ^(٢) ، قلنا : كيف تلقى رسول الله ﷺ وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ فأتينا رسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر ، فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا : نحن الفرارون . فقال : « لا ، بل أنتم العكارون » ^(٣) . فقبلنا يده فقال : « أنا فتتكم ، وأنا فئة المسلمين ، ثم قرأ : ﴿ إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة ﴾ » ^(٤) .

وقد روى في تحريم الفرار من الزحف ، وأنه من الكبائر أحاديث . وورد عن جماعة من الصحابة أنه من الكبائر ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس ^(٥) - وأخرجه ابن أبي شيبة عن ابن عمر ^(٦) - وأخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب ^(٧) .

(١) ابن جرير ١٣٥/٩ .

(٢) حاصوا حيصة : أى جالوا جولة يطلبون الفرار . اللسان ١٩/٧ .

(٣) والعكارون : العائدون إلى القتال والعاطفون عليه ، يقال : عكرت على الشيء ، أى : عطفت عليه ، وانصرفت إليه بعد الذهاب عنه . اللسان ٤ / ٥٩٩ .

(٤) سعيد بن منصور فى الجهاد (٢٥٣٩) وابن سعد ٤/٤٥ وابن أبي شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٣) وأحمد ٧٠/٢ وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٧) والترمذى فى الجهاد (١٧١٦) وقال : « هذا حديث حسن ، لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد » والبيهقى فى الشعب (٤٠٠٢) وقال : « إسناده ضعيف » .

(٥) ابن جرير ١٣٥/٩ . (٦) ابن أبي شيبة فى الجهاد (١٥٥٣٩) .

(٧) المرجع السابق فى الجهاد (١٥٥٣٨) .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ فلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ قال لأصحاب محمد ﷺ حين قال : هذا قُتِلَ ، وهذا قُتِلَ . ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ قال لمحمد ﷺ حين حصب الكفار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ قال : رماهم يوم بدر بالحصباء . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر ، سمعنا صوتاً من السماء إلى الأرض كأنه صوت حصاة وقعت في طست ، ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصباء وقال : « شأهت الوجوه » فانهزمنا . فذلك قوله تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت . . . ﴾ الآية (١) .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال : سمعت صوت حصيات وقعت من السماء يوم بدر كأنهن وقعت في طست . فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن في وجوه المشركين فانهزموا ، فذلك قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ . وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ قال : قال رسول الله لعلی : « ناولني قبضة من حصباء » فناولوه ، فرمى بها في وجوه القوم فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب ، قال : لما كان يوم أحد أخذ أبي بن خلف يركض فرسه حتى دنا من رسول الله ﷺ ، واعترض رجال من المسلمين لأبي بن خلف ليقتلوه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « استأخروا » . فاستأخروا ، فأخذ رسول الله ﷺ حربته في يده ، فرمى بها أبي بن خلف وكسر ضلعاً من أضلاعه ، فرجع أبي بن خلف إلى أصحابه ثقيلًا ، فاحتملوه حين ولوا قافلين ، فطفقوا يقولون : لا بأس . فقال أبي حين قالوا له ذلك : والله لو كانت بالناس لقتلتهم . ألم يقل : إني أقتلك إن شاء الله ، فانطلق به أصحابه ينعثونه حتى مات ببعض الطريق فدفنوه . قال ابن المسيب : وفي ذلك أنزل الله : ﴿ وما رميت إذ رميت ﴾ (٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب والزهرى نحوه . وإسناده صحيح إليهما . وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٤) . قال ابن كثير : وهذا القول عن هذين الإمامين غريب جداً . ولعلهما أرادوا أن الآية تتناولهما بعمومها . وهكذا قال فيما قاله عبد الرحمن بن جبير كما سيأتى (٥) .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبير : أن رسول الله ﷺ لما

(١) ابن جرير ١٣٦/٩ والطبراني (٣١٢٧ ، ٣١٢٨) وقال الهيثمي في المجمع ٨٧/٦ : « إسناده حسن » .

(٢) الطبراني (١١٧٥٠) وقال الهيثمي في المجمع ٨٧/٦ : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) ابن جرير ١٣٦/٩ ، ١٣٧ عن الزهرى نحوه .

(٤) صححه الحاكم ٣٢٧/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

(٥) ابن كثير ٢٩٢/٣ .

خرج [يؤم ابن أبى الحقيق دعا بقوس فرمى بها الحصن . فأقبل السهم حتى قتل ابن أبى الحقيق فى فراشه ، فأنزل الله : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ ولكن الله رمى ﴾ أى لم يكن ذلك برميك لولا الذى جعل الله من نصرك ، وما ألقى فى صدور عدوك حتى هزمهم ﴾ وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ﴾ أى ليعرف المؤمنين من نعمته عليهم فى إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ؛ ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته .

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٩) .

الاستفتاح : طلب النصر . وقد اختلف فى المخاطبين بالآية من هم ؟ فقيل : إنها خطاب للكفار تهكمًا بهم ، والمعنى : إن تستنصروا الله على محمد فقد جاءكم النصر . وقد كانوا عند خروجهم من مكة سألوا الله أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر ، فتهكم الله بهم ، وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً . ومعنى بقية الآية على هذا القول . ﴿ وإن تنتهوا ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله ﴿ فهو ﴾ أى الانتهاء ﴿ خير لكم وإن تعودوا ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿ نعد ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما سلطانهم ونصرتهم فى يوم بدر . ﴿ ولن تغنى عنكم فتنكم ﴾ أى جماعتكم ﴿ شيئاً ولو كثرت ﴾ أى لا تغنى عنكم فى حال من الأحوال ولو فى حال كثرتها . ثم قال : ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ ومن كان الله معه فهو المنصور . ومن كان الله عليه فهو المخدول . قرئ بكسر : « إن » وفتحها . فالكسر على الاستئناف . والفتح على تقدير : ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك .

وقيل : إن الآية خطاب للمؤمنين ، والمعنى : إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر فى يوم بدر . وإن تنتهوا عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم وفداء الأسرى قبل الإذن لكم بذلك فهو خير لكم . وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم ، كما فى قوله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ... ﴾ الآية [الأنفال : ٦٨] . ولا يخفى أنه يابى هذا القول معنى : ﴿ ولن تغنى عنكم فتنكم شيئاً ﴾ ويأباه أيضاً : ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكلف وتعسف .

وقيل : إن الخطاب فى ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ للمؤمنين ، وما بعده للكافرين ، ولا يخفى ما فى هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية فى الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن منده ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن

شهاب عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير، أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا للرحم وآثانا بما لا نعرف فأحنه ^(١) الغداة . فكان ذلك استفتاحاً منه ، فنزلت : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ الآية ^(٢) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية قال : قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أهدى الفتيين ، وأفضل الفتيين ، وخير الفتيين ، فنزلت الآية ^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ يعنى المشركين ، أى إن تستنصروا فقد جاءكم المدد .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ فقد جاءكم الفتح ﴿ قال : كفار قريش فى قولهم : ربنا افتح بيننا وبين محمد وأصحابه ، ففتح بينهم يوم بدر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ قال : إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء فى يوم بدر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ وَإِن تَنْتَهُوا ﴾ قال : عن قتال محمد ﷺ . ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعِدْ ﴾ قال : إن تستفتحوا الثانية أفتح لمحمد . ﴿ وَأَن اللّٰهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : مع محمد وأصحابه . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعِدْ ﴾ يقول : نعد لكم بالأسر والقتل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ (٢٣) ﴿

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن التولى عن رسوله . فالضمير فى ﴿ عَنْهُ ﴾ عائد إلى الرسول ؛ لأن طاعة رسول الله ﷺ هى من طاعة الله . و﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠] . ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله كما فى قوله : ﴿ وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾ [التوبة : ٦٢] وقيل : الضمير راجع إلى الأمر الذى دل عليه ﴿ أَطِيعُوا ﴾ وأصل تولوا : تتولوا ، فطرح إحدى التاءين . هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤمنين . وبه قال الجمهور .

وقيل : إنه خطاب للمنافقين . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالستهم فقط . قال ابن عطية : وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً ؛ لأن الله وصف من خاطبه فى هذه

(١) فأحنه أى : أهلكه ، والخِنْ : بالفتح هو الهلاك . اللسان ١٣/١٣٦ .

(٢) ابن أبي شيبة فى المغازى (١٨٥٢١) وأحمد ٤٣١/٥ والنسائى فى التفسير (٢٢١) وابن جرير ١٣٨/٩ وصححه الحاكم ٣٢٨/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧٤/٣ .

(٣) ابن أبي شيبة فى المغازى (١٨٥٢٨) وابن جرير ١٣٨/٩ .

الآية بالإيمان ، وهو : التصديق . والمتناقضون لا يتصدقون من التصديق بشيء .

وأبعد من هذا من قال : الخطاب لبني إسرائيل ، فإنه أجنبي من الآية . وجملة : ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ فى محل نصب على الحال . والمعنى : وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين ، وتصديقون بها ولستم كالصم البكم . ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا ﴾ وهم المشركون أو المنافقون أو اليهود أو الجميع من هؤلاء ، فإنهم يسمعون بأذانهم من غير فهم ولا عمل ، فهم كالذى لم يسمع أصلاً ؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه .

ثم أخير سبحانه بـ ﴿ إن شر الدواب ﴾ أى ما دب على الأرض ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه ﴿ الصم البكم ﴾ أى الذين لا يسمعون ولا ينطقون . وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق ؛ لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه ، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه ، فهم شر الدواب عند الله ؛ لأنها تميز بعض تمييز ، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها .

﴿ ولو علم الله فيهم ﴾ أى فى هؤلاء الصم البكم ﴿ خيراً لأسمعهم ﴾ سماعاً ينتفعون به ، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين . قال الزجاج : ﴿ لأسمعهم ﴾ جواب كل ما سألوا عنه . وقيل : ﴿ لأسمعهم ﴾ كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ؛ لأنهم طلبوا إحياء قصى بن كلاب وغيره ، ليشهدوا بنوة محمد ﷺ . ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون . وجملة : ﴿ وهم معرضون ﴾ فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ قال : عاصون ^(١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن على ابن أبى طالب فى قوله : ﴿ إن شر الدواب عند الله . . . ﴾ الآية . قال : إن هذه الآية نزلت فى فلان وأصحاب له . وأخرج الفريابي وابن أبى شيبه وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن شر الدواب عند الله ﴾ قال : هم نفر من قريش من بنى عبد الدار .

وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ قال : لا يتبعون الحق . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث وقومه . ولعله المكنى عنه « بفلان » فيما تقدم من قول على رضى الله عنه . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ أى لأنفذ لهم قولهم الذى قالوا بألستهم ، ولكن القلوب خالفت ذلك منهم ^(٢) . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : قالوا نحن صم عما يدعونا إليه محمد لا نسمعه ، بكم لا نجيبه فيه

(١) فى المطبوعة : « غاصبون » وفى ابن جرير ١٤٠ / ٦ « عاصون » ، وهو الصواب كما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن إسحاق ٣١١ / ٢ .

بتصديق ، قتلوا جميعا بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء يوم أحد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢٥)

الأمر هنا بالاستجابة مؤكد لما سبق من الأمر بالطاعة ، ووحيد الضمير هنا حيث قال : ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ كما وحده في قوله : ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ . وقد قدمنا الكلام في وجه ذلك . والاستجابة : الطاعة . قال أبو عبيدة : معنى استجيبوا : أجبوا . وإن كان استجاب يتعدى باللام ، وأجاب بنفسه كما في قوله : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف : ٣١] وقد يتعدى استجاب بنفسه ، كما في قول الشاعر (١) :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ اسْتَجِيبُوا ﴾ أى استجبوا لما يحييكم إذا دعاكم ، ولا مانع من أن تكون متعلقة بـ « دعا » ، أى إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة ، فإن العلم حياة ، كما أن الجهل موت . فالحياة هنا مستعارة للعلم . قال الجمهور من المفسرين : المعنى : استجبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه فيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية . وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ : الجهاد ، فإنه سبب الحياة في الظاهر ؛ لأن العدو إذا لم يغز غزا .

ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله فى حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائنا ما كان ، ويدع ما خالفه من الرأى وأقوال الرجال . وفى هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة ، وترك التقيد بالمذاهب ، وعدم الاعتداد بما يخالف ما فى الكتاب والسنة كائنا ما كان .

قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ قيل : معناه : بادروا إلى الاستجابة قبل أن لا تتمكنوا منها بزوال القلوب التى تعقلون بها بالموت الذى كتبه الله عليكم . وقيل : معناه : إنه خاف المسلمون يوم بدر كثرة العدو ، فأعلمهم الله أنه يحول بين المرء وقلمه بأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ، ويبدل عدوهم من الأمن خوفا . وقيل : هو من باب التمثيل لقربه سبحانه من العبد كقوله : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ومعناه : أنه مطلع على ضمائر القلوب لا تخفى عليه منها خافية .

واختار ابن جرير أن هذا من باب الإخبار من الله عز وجل بأنه أملك لقلوب عباده منهم ،

(١) الشاعر : هو كعب بن سعد الغنوى ، قاله يرثى أخاه أبا المغوار .

وأنة يحول بينهم إذا شاء حتى لا يدرك الإنسان شيئاً إلا بمشيئته عز وجل . ولا يخفاك أنه لا مانع من حمل الآية على جميع هذه المعانى . ﴿ وأنة إليه تحشرون ﴾ معطوف على ﴿ أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ وأنكم محشورون إليه ، وهو مجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً . قال الفراء : ولو استأنفت فكرت همزة « إنه » لكان صواباً . ولعل مراده أن مثل هذا جائز فى العربية .

قوله : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ أى اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ، ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم . وقد اختلف النحاة فى دخول هذه النون المؤكدة فى ﴿ تصيبن ﴾ فقال الفراء : هو بمنزلة قولك : انزل عن الدابة لا تطرحنك . فهو جواب الأمر بلفظ النهى ، أى إن تنزل عنها لا تطرحنك . ومثله قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ﴾ [النمل : ١٨] أى إن تدخلوا ، لا يحطمنكم . فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء .

وقال المبرد : إنه نهى بعد أمر . والمعنى : النهى للظالمين ، أى لا يقربن الظلم . ومثله ما روى عن سيويه : لا أرينك هاهنا ، فإن معناه : لا تكن هاهنا ، فإن من كان هاهنا رأيته . وقال الجرجاني : إن ﴿ لا تصيبن ﴾ نهى فى موضع وصف لفتنة . وقرأ على وزيد بن ثابت وأبى وابن مسعود : « لتصيبن » على أن اللام جواب لقسم محذوف ، والتقدير : اتقوا فتنة والله لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . فيكون معنى هذه القراءة مخالفاً لمعنى قراءة الجماعة ؛ لأنها تفيد أن الفتنة تصيب الظالم خاصة بخلاف قراءة الجماعة .

﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ومن شدة عقابه أنه يصيب بالعذاب من لم يباشر أسبابه ، وقد وردت الآيات القرآنية بأنه لا يصاب أحد إلا بذنبه ، ولا يعذب إلا بجنايته ، فيمكن حمل ما فى هذه الآية على العقوبات التى تكون بتسليط العباد بعضهم على بعض . ويمكن أن تكون هذه الآية خاصة بالعقوبات العامة ، والله أعلم . ويمكن أن يقال : إن الذين لم يظلموا قد تسبوا للعقوبة بأسباب ، كترك الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فتكون الأسباب المتعدية للظالم إلى غيره مختصة بمن ترك ما يجب عليه عند ظهور الظلم .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ قال : للحق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية ، قال : هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة فى الدنيا والآخرة . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ أى للحرب التى أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم بها من العذاب بعد القهر منهم لكم ^(١) . وقد ثبت فى الصحيح من

(١) ابن إسحاق ٢/٣١٢ .

حديث أبى سعيد بن المعلى ، قال : كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ ، فلم أجبه ، ثم أتيته فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلى . فقال : « ألم يقل الله : ﴿ استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ » ^(١) الحديث . وفيه دليل على ما ذكرنا من أن الآية تعم كل دعاء من الله أو من رسوله .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ قال : يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصى الله . ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس فى الآية قال : علمه يحول بين المرء وقلبه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية ، قال : يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن فى الآية قال : فى القرب منه .

وأخرج أحمد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف ، قال : قلت للزبير : يا أبا عبد الله ، ضيعتم الخليفة حتى قتل ، ثم جئتم تطلبون بدمه . قال الزبير : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر وعمر وعثمان : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ ولم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت فينا حيث وقعت . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ، قال : قرأ الزبير : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ قال : البلاء والأمر الذى هو كائن . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الحسن فى الآية ، قال : نزلت فى على وعثمان وطلحة والزبير ^(٢) .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : نزلت فى أصحاب النبي ﷺ خاصة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدى قال : نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابهم يوم الجمل فاقْتتلوا ، فكان من المقتولين طلحة والزبير ، وهما من أهل بدر ^(٣) . وأخرج ابن شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : تصيب الظالم والصالح عامة . وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد مثله .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هى مثل : ﴿ يحول بين المرء وقلبه ﴾ حتى يتركه لا يعقل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ، قال : أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعصمهم الله بالعذاب ^(٤) . وقد وردت الأحاديث الصحيحة الكثيرة بأن هذه الأمة إذا لم يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن المنكر ، عصمهم الله بعذاب من عنده ^(٥) .

(١) البخارى فى التفسير (٤٤٧٤ ، ٤٧٠٣) وأبو داود فى الصلاة (١٤٥٨) وابن ماجه فى الادب (٣٧٨٥) .

(٢) ابن جرير ١٤٤/٩ . (٣) ابن جرير ١٤٤/٩ .

(٥) ومنها هذا الحديث عن أبى بكر رضى الله عنه قال : يا أيها الناس : إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : =

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَزَوَّدَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)﴾

الخطاب بقوله : ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ للمهاجرين ، أى اذكروا وقت قتلتكم . و﴿مستضعفون﴾ خبر ثان للمبتدأ . والأرض : هى أرض مكة . والخطف : الأخذ بسرعة . والمراد بالناس : مشركو قريش . وقيل : فارس والروم . ﴿فآواكم﴾ يقال : آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى انضم إليه . فالمعنى : ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الانتصار . ﴿وأيدكم بنصره﴾ أى قواكم بالنصر فى مواطن الحرب التى منها يوم بدر . أو قواكم بالملائكة يوم بدر . ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ التى من جملتها الغنائم . ﴿لعلكم تشكروا﴾ أى إرادة أن تشكروا هذه النعم التى أنعم بها عليكم . والخون : أصله كما فى الكشف : النقص . كما أن الوفاء : التمام ^(١) ، ثم استعمل فى ضد الأمانة والوفاء ، لأنك إذا خنت الرجل فى شيء فقد أدخلت عليه النقصان . وقيل : معناه الغدر وإخفاء الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر : ١٩] . نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم ، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمنهم عليه ، أو بترك شيء مما سنه لهم ، أو يخونوا شيئا من الأمانات التى اتتموا عليها ؛ وسميت أمانات ؛ لأنه يؤمن معها من منع الحق ، مأخوذة من الأمن .

وجملة : ﴿وأنتم تعلمون﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة ، فتفعلون الخيانة عن عمد ، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل . ثم قال : ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ لأنهم سبب الوقوع فى كثير من الذنوب ، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده . وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا كما فى الآية الأخرى . ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ فأثروا حقه على أموالكم وأولادكم ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ قال : كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا ، وأجوعه بطونا ، وأعره جلودا ، وأبينه ضلالة ، من عاش عاش شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار ، يؤكلون ولا يأكلون ،

= « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » أبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨) . والترمذى فى الفتى (٢١٦٨) وعن حذيفة بن اليمان حديث آخر (٢١٦٩) والنسائى فى التفسير (١٧٧) . وابن ماجة فى الفتى (٤٠٠٥) وحديث آخر عن عائشة (٤٠٠٤) .

(١) الكشف : ٢ / ٢١٣ .

لا والله ما نعلم قبيلة من حاضري الأرض يومئذ كان أشد منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿يَتَخَفَتُكُمُ النَّاسُ﴾ قال: في الجاهلية بمكة. ﴿فَأَوَاكُم﴾ إلى الإسلام. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب في قوله: ﴿يَتَخَفَتُكُمُ النَّاسُ﴾ قال: الناس إذ ذاك فارس والروم. وأخرج أبو الشيخ وأبو نعيم، والديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس﴾ قيل: يا رسول الله، ومن الناس؟ قال: «أهل فارس». وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿فَأَوَاكُم﴾ قال: إلى الأنصار بالمدينة ﴿وأيدكم بنصره﴾ قال: يوم بدر.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبريل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان: إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية (١). وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن أبي قتادة، قال: نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في أبي لبابة بن عبد المنذر، سأله يوم قريظة: ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، فنزلت. قال أبو لبابة: ما زالت قدماي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله (٢). وأخرج سنيد وابن جرير عن الزهري نحوه بأطول منه (٣). وأخرج عبد بن حميد عن الكلبي: أن رسول الله ﷺ بعث أبا لبابة إلى قريظة وكان حليفاً لهم، فأومأ بيده أنه الذبح، فنزلت. وأخرج أبو الشيخ عن السدي في هذه الآية أنها نزلت في أبي لبابة، ونسختها الآية التي في براءة: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ [التوبة: ١٠٢].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾ قال: بترك فرائضه ﴿والرسول﴾ بترك سنته وارتكاب معصيته ﴿وتخونوا أماناتكم﴾ يقول: لا تنقصوها. والأمانة: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد. وأخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان. ولعل مراده أن من جملة ما يدخل تحت عمومها قتل عثمان (٤). وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبي حبيب في الآية، قال: هو

(١) ابن جرير ١٤٦/٩ وقال الشيخ محمود شاكر في تحقيقه لابن جرير: «وهذا خبر ضعيف جداً لضعف محمد المحرم وهو متروك الحديث» وقد ذكر الخبر ابن كثير في تفسيره ٣/٤٠٤ وقال: «هذا إسناد غريب جداً وفي سنده وسياقه نظر».

(٢ — ٤) ابن جرير ١٤٦/٩.

الإخلال بالسلاح فى المغازى . ولعل مراده أن هذا مما يندرج تحت عمومها .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم؛ وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال: ما منكم من أحد إلا وهو يشتمل على فتنة لأن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن ^(١) . وأخرج هؤلاء عن ابن زيد فى الآية قال : فتنة الاختبار اختبرهم . وقرأ : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ ﴾ ^(٢) بالبشر والخير فتنة ﴿ [الأنبياء : ٣٥] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢٩)

جعل الله سبحانه التقوى شرطاً فى الجعل المذكور مع سبق علمه بأنهم يتقون أو لا يتقون ، جرياً على ما يخاطب به الناس بعضهم بعضاً . والتقوى : اتقاء مخالفة أوامره ، والوقوع فى مناهيه . والفرقان : ما يفرق به بين الحق والباطل . والمعنى : أنه يجعل لهم من ثبات القلوب وثقوب البصائر وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس . وقيل : الفرقان : المخرج من الشبهات ، والنجاة من كل ما يخافونه ، ومنه قول الشاعر :

ما لك من طول الأسى فرقان بعد قطين رحلوا وبانوا

ومنه قول الآخر :

وكيف أرجو الخلد والموت طالبي وما لى من كأس المنية فرقان

وقال الفراء : المراد بالفرقان : الفتح والنصر . قال ابن إسحاق : الفرقان : الفصل بين الحق والباطل . وبمثله قال ابن زيد . وقال السدى : الفرقان : النجاة . ويؤيد تفسير الفرقان بالمخرج والنجاة قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] . وبه قال مجاهد ومالك بن أنس .

﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أى يسترها حتى تكون غير ظاهرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما اقترفت من الذنوب . وقد قيل : إن المراد بالسيئات : الصغائر ، وبالذنوب التى تغفر : الكبائر . وقيل : المعنى : أنه يغفر لهم ما تقدم من الذنوب وما تأخر . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فهو المتفضل على عباده بتكفير السيئات ومغفرة الذنوب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قال : هو المخرج . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو النجاة . وأخرج ابن جرير عن عكرمة مثله . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ، قال : هو النصر .

(٢) فى المخطوطة : « وَلِنَبْلُوكُمْ » ، وهو خطأ .

(١) المرجع السابق ١٤٧/٩ .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾

قوله : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الظرف معمول لفعل محذوف ، أى واذكر يا محمد وقت مكر الكافرين بك ، أو معطوف على ما تقدم من قوله : ﴿وَاذْكُرُوا﴾ ذكر الله رسوله هذه النعمة العظمى التى أنعم بها عليه ، وهى نجاته من مكر الكافرين وكيدهم كما سيأتى بيانه . ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أى يثبتوك بالجراحات كما قال ثعلب وأبو حاتم وغيرهما ، ومنه قول الشاعر :

فقلت ويحكم ما فى صحيفتكم قالوا الخليفة أمسى مثبثا وجعا

وقيل المعنى : ليحبسوك . يقال : أثبتته إذا حبسه . وقيل : ليوثقوك . ومنه : ﴿فشدوا الوثاق﴾ [محمد : ٤] وقرأ الشعبى : « ليبثوك » من البيات . وقرئ : « ليثبتوك » بالتشديد . ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ معطوف على ما قبله ، أى يخرجوك من مكة التى هى بلدك وبلد أهللك . وجملة : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ مستأنفة . والمكر : التدبير فى الأمر فى خفية . والمعنى : أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله ﷺ من المكائد ، فيجازيهم الله على ذلك ، ويرد كيدهم فى نحورهم . وسمى ما يقع منه تعالى مكرًا مشاكلة كما فى نظائره . ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم ، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون ، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم وأعظم بلاء من مكرهم .

قوله : ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أى التى تأتيتهم بها وتتلوها عليهم . ﴿قَالُوا﴾ تعنتا وتمردا وبعدا عن الحق : ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما تتلوه علينا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ الذى تلوته علينا . قيل : إنهم قالوا هذا توهماً منهم أنهم يقدرون على ذلك . فلما راموا أن يقولوا مثله ، عجزوا عنه ، ثم قالوا ^(١) عناداً وتمرداً : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى ما يستطره الوراقون من أخبار الأولين . وقد تقدم بيانه مستوفى .

﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ أى واذكر إذ قالوا : ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ بنصب الحق على أنه خبر كان ، والضمير للفصل . ويجوز الرفع . قال الزجاج : ولا أعلم أحداً قرأ بها ، ولا اختلاف بين النحويين فى إجازتها ، ولكن القراءة سنة . والمعنى : إن كان القرآن

(١) فى المطبوعة : « قال » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

الذى جاءنا به محمد هو الحق ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ﴾ قالوا هذه المقالة مبالغة فى الجحود والإنكار . قال أبو عبيدة : يقال : أمطر فى العذاب ، ومطر فى الرحمة . وقال فى الكشاف : قد كثر الإمطار فى معنى العذاب (١) .

﴿ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ سألوا أن يعذبوا بالرجم بالحجارة من السماء ، أو بغيرها من أنواع العذاب الشديد . فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ فِيهِمْ ﴾ موجود ، فإنك ما دمت فيهم فهم فى مهلة من العذاب الذى هو الاستئصال . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ روى أنهم كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك ، أى وما كان الله معذبهم فى حال كونهم يستغفرونه . وقيل : المعنى : لو كانوا ممن يؤمن بالله ويستغفرون لم يعذبهم . وقيل : إن الاستغفار راجع إلى المسلمين الذين هم بين أظهرهم ، أى وما كان الله ليعذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، فلما خرجوا من بين أظهرهم ، عذبهم بيوم بدر وما بعده . وقيل : المعنى : وما كان الله معذبهم وفى أصلابهم من يستغفر الله .

وقد أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والخطيب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قالوا : تشاورت قريش ليلة بمكة ، فقال بعضهم : إذا أصبح فاثبتوه بالوثاق . يريدون النبى ﷺ . وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فبات على فراش النبى ﷺ حتى لحق بالغار ، فلما أصبحوا ، ثاروا إليه ، فلما رأوه عليا ، رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ فقال : لا أدري ، فاقصصوا أثره . فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل ، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه . فمكث فيه ثلاث ليال (٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس ، فذكر القصة بأطول مما هنا . وفيها ذكر الشيخ النجدى ، أى إبليس ومشورته عليهم عند اجتماعهم فى دار الندوة للمشاورة فى أمر النبى ﷺ ، وأن أبا جهل أشار بأن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش غلاما ، ويعطوا كل واحد منهم سيفا ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه ، تفرق دمه فى القبائل ، فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو رأى . ففترقوا على ذلك (٣) .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير ، قال : لما ائتمروا بالنبى ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، قال له عمه أبو طالب : هل

(١) الكشاف : ٢١٧/٢ .

(٢) عبد الرزاق (٩٧٤٣) وأحمد ٣٤٨/١ والطبرانى (١٢١٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٣٠/٧ : « فيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقيّة رجاله رجال الصحيح » . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تحقيقه

للمسند (٣٢٥١) : « فى إسناده نظر » وأبو نعيم فى الدلائل ١٤٩ ، ١٥٠ وابن جرير ١٥٠/٩ .

(٣) ابن إسحاق ١٢٢/٢ - ١٢٥ وابن جرير ١٤٩/٩ .

تدرى ما اثمروا بك ؟ قال : « يريدون أن يسجنوني ، أو يقتلونى ، أو يخرجونى » . قال : من حدثك بهذا ؟ قال : « ربي » . قال : نعم الرب ربك ، استوص به خيرا ، قال : « أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » ^(١) وأخرجه ابن جرير من طريق أخرى عنه ^(٢) . وهذا لا يصح فقد كان أبو طالب مات قبل وقت الهجرة بسنين .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جرير فى قوله : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ قال : قال عكرمة : هى مكبة ^(٣) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء فى قوله : ﴿ ليثبتوك ﴾ يعنى : ليوثقوك . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : قتل النبى ﷺ يوم بدر صبيرا عقبه بن أبى معيط ، وطعيمة بن عدى ، والنضر ابن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول فى كتاب الله ما يقول » . قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ وهذا مرسل ^(٤) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى النضر بن الحارث .

وأخرج البخارى وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى عن أنس بن مالك ، قال : قال أبو جهل بن هشام : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك . . . ﴾ الآية ، فنزلت : ﴿ وما كان الله ليعذبهم . . ﴾ الآية ^(٥) . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنها نزلت فى أبى جهل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية أنها نزلت فى النضر بن الحارث ^(٦) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله ^(٧) . وأخرج ابن جرير عن عطاء نحوه ^(٨) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ، قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لييك اللهم لييك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك . ويقولون : غفرانك غفرانك . فأنزل الله : ﴿ وما كان الله ليعذبهم . . ﴾ الآية .

قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبى ﷺ والاستغفار ، فذهب النبى ﷺ وبقي الاستغفار ^(٩) . وأخرج الترمذى وضعفه عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال النبى ﷺ : « أنزل الله على أمانين لأمتي : ﴿ وما كان الله ليعذبهم . . ﴾ الآية . فإذا مضيت ، تركت فيهم الاستغفار » ^(١٠) .

(١) ابن جرير ١٤٩/٩ وقال ابن كثير ٣/٣٠٦ : « وذكر أبى طالب فى هذا غريب جدا ، بل منكر : لأن هذه الآية مدنية ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الاتصاف والمشاورة على الإنابة أو النفى أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء : وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين » .

(٢) ابن جرير ١٤٩/٩ . (٣) المرجع السابق ١٥١/٩ .

(٤) ابن جرير ١٥٢/٩ . (٥) البخارى فى التفسير (٤٦٤٨) ، (٤٦٤٩) والبيهقى فى الدلائل ٧٥/٣ .

(٦ — ٨) ابن جرير ١٥٢/٩ . (٩) ابن جرير ١٥٤/٩ والبيهقى ٤٥/٥ ، ٤٦ .

(١٠) الترمذى فى التفسير (٣٠٨٢) وقال : « هذا حديث غريب وإسماعيل بن مهاجر يضعف فى الحديث » .

وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : كان فيكم أمانان مضى أحدهما ، وبقي الآخر ، قال : ﴿ وما كان الله ليعذبهم ﴾ الآية (١) . وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه والحاكم وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري نحوه أيضا (٢) . والأحاديث عن رسول الله ﷺ في مطلق الاستغفار كثيرة جدا معروفة في كتب الحديث .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) ﴾

قوله : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ لما بين سبحانه أن المانع من تعذيبهم هو الأمان المتقدمان : وجود رسول الله ﷺ بين ظهورهم ، ووقوع الاستغفار ، ذكر بعد ذلك أن هؤلاء الكفار - أعنى كفار مكة - مستحقون لعذاب الله لما ارتكبوا من القبائح . والمعنى : أى شيء لهم يمنع من تعذيبهم ؟ قال الأخفش : إن « أن » زائدة . قال النحاس : لو كان كما قال ، لرفع ﴿ يعذبهم ﴾ وجملة : ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى وما يمنع من تعذيبهم ؟ والحال أنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما وقع منهم عام الحديبية من منع رسول الله ﷺ وأصحابه من البيت . وجملة : ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ فى محل نصب على أنها حال من فاعل ﴿ يصدون ﴾ وهذا كالرد لما كانوا يقولونه من أنهم ولاية البيت ، وأن أمره مفوض إليهم ، ثم قال مبينا لمن له ذلك : ﴿ إن أوليائه إلا المتقون ﴾ أى ما أوليائه إلا من كان فى عداد المتقين للشرك والمعاصي ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ذلك . والحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون .

قوله : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ المكاء : الصفير من مكاء يمكو مكاء . ومنه قول عنترة :

وخليل غانية تركت مجندلا تمكو فريسته كشدق الأعلم

أى تصوت . ومنه مكت است الدابة : إذا نفخت بالريح . قيل : المكاء : هو الصفير على لحن طائر أبيض بالحجاز يقال له : المكاء . قال الشاعر :

(١) صححه الحاكم ٥٤٢/١ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي فى الشعب (٦٥٤) .

(٢) ابن جرير ١٥٤/٩ والحاكم ٥٤٢/١ وسكت عنه وكذا الذهبي ، وهو موقوف .

إذا غرد المكاء فى غير دوحه فويل لأهل الشاء والحمرات
والتصدية : التصفيق ، يقال : صد يصدى تصدىة : إذا صفق . ومنه قول عمرو بن
الإطنابة :

وظلوا جميعا لهم ضجة مكاء لدى البيت بالتصدية

أى بالتصفيق. وقيل : المكاء : الضرب بالأيدي . والتصدية : الصياح . وقيل : المكاء :
إدخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية : الصفير . وقيل : التصدية : صدهم عن البيت .
قيل : والأصل على هذا : تصددة ، فأبدل من إحدى الدالين ياء . ومعنى الآية : أن المشركين
كانوا يصفرون ويصفقون عند البيت الذى هو موضع للصلاة والعبادة فوضعوا ذلك موضع الصلاة
قاصدين به أن يشغلوا المصلين من المسلمين عن الصلاة . وقرئ نصب : « صلاتهم » على أنها
خبر كان ، وما بعده اسمها . قوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ هذا التفات إلى
مخاطبة الكفار تهديدا لهم ومبالغة فى إدخال الروعة فى قلوبهم . والمراد به : عذاب الدنيا كيوم
بدر وعذاب الآخرة .

قوله : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ لما فرغ سبحانه من
شرح أحوال هؤلاء الكفرة فى الطاعات البدنية ، أتبعها شرح أحوالهم فى الطاعات المالية .
والمعنى : أن غرض هؤلاء الكفار فى إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله
ﷺ وجمع الجيوش لذلك ، وإنفاق أموالهم عليها ، وذلك كما وقع من كفار قريش يوم بدر ،
ويوم أحد ، ويوم الأحزاب . فإن الرؤساء كانوا ينفقون أموالهم على الجيش ، ثم أخبر الله
سبحانه عن الغيب على وجه الإعجاز فقال : ﴿ فسيفقونها ﴾ أى سيقع منهم هذا الإنفاق ﴿ ثم
تكون ﴾ عاقبة ذلك أن يكون إنفاقهم حصرة عليهم ، وكأن ذات الأموال تنقلب حصرة تصير
ندما . ﴿ ثم ﴾ آخر الأمر ﴿ يغلبون ﴾ كما وعد الله به فى مثل قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا
ورسلى ﴾ [المجادلة: ٢١] ومعنى ﴿ ثم ﴾ فى الموضعين : إما التراخى فى الزمان لما بين
الإنفاق المذكور ، وبين ظهور دولة الإسلام من الامتداد ، وإما التراخى فى الرتبة لما بين بذل المال
وعدم حصول المقصود من المبائة ، ثم قال : ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ أى
استمروا على الكفر ؛ لأن من هؤلاء الكفار المذكورين سابقا من أسلم وحسن إسلامه ، أى
يساقون إليها لا إلى غيرها . ثم بين العلة التى لأجلها فعل بهم ما فعله ، فقال : ﴿ ليميز الله
الخبث ﴾ أى الفريق الخبيث من الكفار ﴿ من ﴾ الفريق ﴿ الطيب ﴾ وهم المؤمنون . ﴿ ويجعل
الخبث بعضه على بعض ﴾ أى يجعل فريق الكفار الخبيث بعضه على بعض ﴿ فيركمه
جميعا ﴾ عبارة عن الجمع والضم ، أى يجمع بعضهم إلى بعض ، ويضم بعضهم إلى بعض
حتى يتراكموا لفرط ازدحامهم . يقال : ركم الشيء يركمه : إذا جمعه وألقى بعضه على
بعض . والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الفريق الخبيث . ﴿ هم الخاسرون ﴾ أى الكاملون

فى الخسران . وقيل : الخبيث والطيب : صفة للمال . والتقدير : يميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون ، فيضم تلك الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقيه فى جهنم ، ويعذبهم بها كما فى قوله تعالى : ﴿ فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ [التوبة : ٣٥] . قال فى الكشف : واللام على هذا متعلقة بقوله : ﴿ ثم تكون عليهم حسرة ﴾ وعلى الأول بـ ﴿ يحشرون ﴾ . و﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين كفروا . انتهى^(١) .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ قال : عذابهم فتح مكة . وأخرج ابن إسحاق وأبو حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ وهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسله . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير فى قوله : ﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام ﴾ أى من آمن بالله وعبدته أنت ومن اتبعك . ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ الذين يخرجون منه ويقيمون الصلاة عنده ، أى أنت ومن آمن بك . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ قال : من كانوا حيث كانوا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال : كانت قریش يعارضون النبى ﷺ فى الطواف ويستهنئون ويصفرون ويصفقون ، فنزلت : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾^(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والضياء عن ابن عباس قال : كانت قریش يطوفون بالكعبة عراة تصفر وتصفق ، فأنزل الله : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ قال : المكاء : الصفير . إنما شبهوا بصفير الطير . ﴿ وتصدية ﴾ : التصفيق . وأنزل الله فيهم : ﴿ قل من حرم زينة الله . . . ﴾ الآية [الأعراف : ٣٢] . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه نحوه أيضا^(٣) .

وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : المكاء : الصفير . والتصدية : التصفيق .

وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : المكاء : إدخال أصابعهم فى أفواههم . والتصدية : الصفير ، يخلطون بذلك كله على محمد ﷺ صلاته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : المكاء : الصفير ، على نحو طير أبيض يقال له : المكاء . يكون بأرض الحجاز . والتصدية : التصفيق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إلا مكاء ﴾ قال : كانوا

(٢) ، (٣) ابن جرير ١٥٨/٩ .

(١) الكشف : ٢١٩/٢ .

يشبكون أصابعهم ويصفرون فيهن . ﴿ وتصدية ﴾ قال : صدهم الناس . وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : كان المشركون يطوفون بالبيت على الشمال ، وهو قوله : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ فالمكاء مثل نفخ البوق . والتصدية : طوافهم على الشمال .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ قال : يعنى أهل بدر ، عذبهم الله بالقتل والأسر .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل ، كلهم من طريقه ، قال : حدثني الزهري ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم ^(١) إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آبائهم وأبناءؤهم ، فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم فأعينوا بهذا المال على حرب . فلعلنا أن ندرك منه ثاراً . ففعلوا ، ففيهم - كما ذكر ابن عباس أنزل الله : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ﴾ إلى ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ ^(٢) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أبي سفيان بن حرب . وأخرج عبد ابن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد نحوه ^(٣) . وأخرج هؤلاء وغيرهم عن سعيد بن جبير نحوه ^(٤) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحكم بن عتيبة في الآية قال : نزلت في أبي سفيان ، أنفق على مشركي قريش يوم أحد أربعين أوقية من ذهب ، وكانت الوقية يومئذ اثنين وأربعين مثقالاً من ذهب ^(٥) .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن شمر بن عطيّة في قوله : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ قال : يميز يوم القيامة ما كان من عمل صالح في الدنيا ، ثم تؤخذ الدنيا بأسرها فتلقى في جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله : ﴿ فيركمه جميعاً ﴾ قال : يجمعه جميعاً .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نَعِمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعِمَ النَّصِيرُ (٤٠) ﴾

(١) فلهم : الفل : المنهزم . اللسان ٣٥٠ / ١١ .

(٢) ابن إسحاق ٣١٤ / ٢ وابن جرير ١٦٠ / ٩ والبيهقي في الدلائل ٢٢٥ / ٣ .

(٣) ابن جرير ١٦٠ / ٩ . (٤) المرجع السابق ١٥٩ / ٩ .

(٥) المرجع السابق ١٦٠ / ٩ .

أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى . وسواء قاله بهذه العبارة أو غيرها . قال ابن عطية : ولو كان كما قال الكسائى : إنه فى مصحف عبد الله بن مسعود : « قل للذين كفروا إن تنتهوا » يعنى بالثناء المثناة من فوق ، لما تأدت الرسالة إلا بتلك اللفاظ بعينها . وقال فى الكشف : أى قل لأجلهم هذا القول . وهو ﴿ إن ينتهوا ﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم ، لقليل : إن تنتهوا يغفر لكم . وهى قراءة ابن مسعود ونحوه : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ [الأحقاف : ١١] خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه ، أى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول فى الإسلام ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ لهم من العداوة . انتهى ^(١) . وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر . قال ابن عطية : والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ ، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لمتته عن الكفر ، وفى هذه الآية دليل على أن الإسلام يجب ما قبله .

﴿ وإن يعودوا ﴾ إلى القتال والعداوة أو إلى الكفر الذى هم عليه ، ويكون العود بمعنى الاستمرار . ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ هذه العبارة مشتملة على الوعيد والتهديد والتشثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهر بعذاب الله ، أى قد مضت سنة الله فيمن فعل مثل فعل هؤلاء من الأولين من الأمم أن يصيبه بعذاب ، فليتوقعوا مثل ذلك .

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ أى كفر . وقد تقدم تفسير هذا فى البقرة مستوفى . ﴿ فإن انتهوا ﴾ عما ذكر ﴿ فإن الله بما يعملون بصير ﴾ لا يخفى عليه ما وقع منهم من الانتهاء ﴿ وإن تولوا ﴾ عما أمروا به من الانتهاء ﴿ فاعلموا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أن الله مولاكم ﴾ أى ناصرهم عليهم ﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾ فمن والاه فاز ، ومن نصره غلب .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ قال : فى قریش وغيرها يوم بدر ، والأمم قبل ذلك . وأخرج أحمد ومسلم عن عمرو بن العاص قال : لما جعل الله الإسلام فى قلبى ، أتيت النبى ﷺ فقلت : أبسط يدك فلا بايعك . فبسط يمينه ، فقبضت يدى . قال : « ما لك ؟ » . قلت : أردت أن أشترط . قال : « تشترط ماذا ؟ » قلت : أن تستغفر لى . قال : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » ^(٢) . وقد ثبت فى الصحيح من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » .

وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى : ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ بما مضى فى الأمم المتقدمة من عذاب من قاتل الأنبياء وصمم على الكفر . وقال السدى ومحمد بن إسحاق : المراد بالآية : يوم بدر . وفسر جمهور السلف الفتنة المذكورة هنا : بالكفر . وقال محمد بن إسحاق

(٢) أحمد ٤/١٩٨ ، ١٩٩ ومسلم فى الإيمان (١٢١/١٩٢) .

(١) الكشف ٢/٢١٩ .

بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤٢)

لما أمر الله سبحانه بالقتال بقوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ وكانت المقاتلة مظنة حصول الغنيمة ، ذكر حكم الغنيمة ، والغنيمة قد قدمنا أن أصلها : إصابة الغنم من العدو ، ثم استعملت فى كل ما يصاب منهم ، وقد تستعمل فى كل ما ينال بسعى . ومنه قول الشاعر :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رصيت من الغنيمة بالإياب

ومنه قول الآخر :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

وأما معنى الغنيمة فى الشرع : فحكى القرطبى الاتفاق على أن المراد بقوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ : مال الكفار إذا ظفر بهم المسلمون على وجه الغلبة والقهرة . قال : ولا تقتضى اللغة هذا التخصيص ، ولكن عرف الشرع قيد اللفظ بهذا النوع . وقد ادعى ابن عبد البر الإجماع على أن هذه الآية بعد قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ [الأنفال : ١] وأن أربعة أخماس الغنيمة مقسومة على الغنائم . وأن قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ نزلت حين تشاجر أهل بدر فى غنائم بدر على ما تقدم أول السورة .

وقيل : إنها — أعنى قوله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ ، محكمة غير منسوخة ، وأن الغنيمة لرسول الله ﷺ وليست مقسومة بين الغنائم ، وكذلك لمن بعده من الأئمة ، حكاه الماوردى عن كثير من المالكية . قالوا : وللإمام أن يخرجها عنهم ، واحتجوا بفتح مكة وقصة حنين . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح رسول الله ﷺ مكة عنوة ، ومن على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فئاً . وقد حكى الإجماع جماعة من أهل العلم على أن أربعة أخماس الغنيمة للغنائم . ومن حكى ذلك ابن المنذر وابن عبد البر والداودى والمازرى والقاضى عياض وابن العربى . والأحاديث الواردة فى قسمة الغنيمة بين الغنائم وكيفية كثيرة جداً .

قال القرطبى : ولم يقل أحد فيما أعلم أن قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾

الآية ناسخ لقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ الآية . بل قال الجمهور : إن قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ ناسخ ، وهم الذين لا يجوز عليهم التحريف ولا التبديل لكتاب الله . وأما قصة فتح مكة فلا حجة فيها لاختلاف العلماء فى فتحها^(١) . قال : وأما قصة حنين فقد عوض الأنصار لما قالوا تعطى الغنائم قريشا وتركنا وسيفنا تقطر من دماهم نفسه ، فقال لهم : « أما ترضون أن يرجع الناس بالدينا وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم ؟ »^(٢) كما فى مسلم وغيره . وليس لغيره أن يقول هذا القول ، بل ذلك خاص به .

قوله : ﴿ أنما غنمتم من شىء ﴾ يشمل كل شىء يصدق عليه اسم الغنمة . و﴿ من شىء ﴾ بيان لـ « ما » الموصولة . وقد خصص الإجماع من عموم الآية الأسارى ، فإن الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف . وكذلك سلب المقتول إذا نادى به الإمام . وقيل : كذلك الأرض المغنومة . ورد بأنه لا إجماع على الأرض .

قوله : ﴿ فأن لله خمسة ﴾ قرأ النخعى : « فإن لله » بكسر إن ، وقرأ الباقون بفتحها على أن ﴿ أن ﴾ وما بعدها مبتدأ وخبره محذوف ، والتقدير : فحق أو فواجب أن لله خمسة . وقد اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة :

الأول : قالت طائفة : يقسم الخمس على ستة ، فيجعل السدس للكعبة ، وهو الذى لله ، والثانى لرسول الله . والثالث لذوى القربى ، والرابع لليتامى ، والخامس للمساكين ، والسادس لابن السبيل .

والقول الثانى : قاله أبو العالية والربيع : إنها تقسم الغنمة على خمسة ، فيعزل منها سهم واحد ، ويقسم أربعة على الغنائمين ، ثم يضرب يده فى السهم الذى عزله ، فما قبضه من شىء جعله للكعبة ، ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة للرسول ومن بعده . الآية .

القول الثالث : روى عن زين العابدين على بن الحسين أنه قال : إن الخمس لنا . فقيل له : إن الله يقول : ﴿ واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ فقال : يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا .

القول الرابع : قول الشافعى : إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية .

القول الخامس : قول أبى حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه . قال : ويبدأ من الخمس بإصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاة والجنود . وروى نحو هذا عن الشافعى .

(١) القرطبى ٢٨٤٦/٣ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣٣٧) ومسلم فى الزكاة (١٠٥٩/١٣٥) وكلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

القول السادس : قول مالك : إنه موكل إلى نظر الإمام واجتهاده ، فيأخذ منه بغير تقدير ، ويعطى منه الغزاة باجتهاد ، ويصرف الباقي فى مصالح المسلمين .

قال القرطبي : وبه قال الخلفاء الأربعة وبه عملوا ، وعليه يدل قوله ﷺ : « ما لى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخصم مردود عليكم » (١) . فإنه لم يقسمه أحساساً ولا أثلاً ، وإنما ذكر ما فى الآية من ذكره على وجه التنبيه عليهم ؛ لأنهم من أهم من يدفع إليه . قال الزجاج محتجاً لهذا القول : قال الله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [البقرة : ٢١٥] . وجائز بإجماع أن ينفق فى غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك (٢) .

قوله : ﴿ ولذى القربى ﴾ قيل : إعادة اللام فى ذى القربى دون من بعدهم لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى ﷺ .

وقد اختلف العلماء فى القربى على أقوال : الأول : أنهم قریش كلها ، روى ذلك عن بعض السلف ، واستدل بما روى عن النبى ﷺ أنه لما صعد الصفا جعل يهتف ببطون قریش كلها قائلاً : « يا بنى فلان ، يا بنى فلان » (٣) .

وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جرير ومسلم بن خالد : هم بنو هاشم وبنو المطلب لقوله ﷺ : « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبك بين أصابعه . وهو فى الصحيح (٤) .

وقيل : هم بنو هاشم خاصة . وبه قال مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم . وهو مروي عن على بن الحسين ومجاهد .

قوله : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله ﴾ قال الزجاج عن فرقة : إن المعنى : فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم آمنتم بالله . وقالت فرقة أخرى : إن ﴿ إن ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ قال ابن عطية : وهذا هو الصحيح ؛ لأن قوله : ﴿ واعلموا ﴾ يتضمن الأمر بالانقياد والتسليم لأمر الله فى الغنائم ، فعلق ﴿ إن ﴾ بقوله : ﴿ واعلموا ﴾ على هذا المعنى ، أى إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنمة . وقال فى الكشف : إنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿ واعلموا ﴾ بمعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن

(١) مالك فى الجهاد (٢٢) عن عمرو بن شعيب ، وأحمد ١٢٢/٤ عن العرياض بن سارية ، ٣١٦/٥ عن عبادة بن الصامت ، والنسائي ١٣١/٧ ، ١٣٢ عن عبادة أيضاً .

(٢) القرطبي ٢٨٥٠/٤ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٨٠١) ومسلم فى الإيمان (٣٥٥/٢٠٨) والترمذى فى التفسير (٣٣٦٣) وقال : « حسن صحيح » كلهم عن ابن عباس رضى الله عنه .

(٤) البخارى فى فرض الخمس (٣١٤٠) وفى المناقب (٣٥٠٢) وأبو داود فى الخراج والإمارة والفىء (٢٩٧٨) ، (٢٩٨٠) والنسائي فى قسم الفىء ١٣١/٧ وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٨١) عن جبير بن مطعم رضى الله عنه .

الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطعامكم ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة .
وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله ؛ لأن العلم المجرد
يستوى فيه المؤمن والكافر . انتهى (١) .

قوله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا ﴾ معطوف على الاسم الجليل ، أى إن كنتم آمنتم
بالله وبما أنزلنا . و﴿ يوم الفرقان ﴾ : يوم بدر ؛ لأنه فرق بين أهل الحق وأهل الباطل .
و﴿ الجمعان ﴾ : الفريقان من المسلمين والكافرين ﴿ والله على كل شئ قدير ﴾ ومن قدرته
العظيمة نصر الفريق الأقل على الفريق الأكثر .

قوله : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب
بكسر العين فى العدوة فى الموضعين . وقرأ الباقون بالضم فيهما . و﴿ إذ ﴾ بدل من يوم الفرقان ،
ويجوز أن يكون العامل محذوفا ، أى واذكروا إذ أنتم . والعدوة : جانب الوادى . والدنيا :
تأنيث الأدنى . والقصوى : تأنيث الأقصى ، من دنا يدنو ، وقصا يقصو . ويقال : القصيا ،
والأصل الواو . وهى لغة أهل الحجاز . والعدوة الدنيا : كانت مما يلى المدينة ، والقصوى :
كانت مما يلى مكة ، والمعنى : وقت نزولكم بالجانب الأدنى من الوادى إلى جهة المدينة ،
وعدوكم بالجانب الأقصى منه مما يلى مكة ، وجملة : ﴿ الركب أسفل منكم ﴾ : فى محل نصب
على الحال . وانتصاب ﴿ أسفل ﴾ على الظرف . ومحلله الرفع على الخبرية ، أى والحال أن
الركب فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه . وأجاز الأخفش والكسائى والقراء رفع أسفل
على معنى أشد سفلا منكم ، والركب : جمع راكب . ولا تقول العرب ركب إلا للجماعة
الراكبي الإبل . ولا يقال لمن كان على فرس وغيرها : ركب . وكذا قال ابن فارس ، وحكاه ابن
السكيت عن أكثر أهل اللغة . والمراد بالركب هاهنا : ركب أبى سفيان ، وهى المراد بالعبير ،
فإنهم كانوا فى موضع أسفل منهم مما يلى ساحل البحر .

قيل : وفائدة ذكر هذه الحالة التى كانوا عليها ، من كونهم بالعدوة الدنيا وعدوهم بالعدوة
القصوى والركب أسفل منهم : الدلالة على قوة شأن العدو وشوكته . وذلك لأن العدوة
القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لا يابس بها . وأما العدوة الدنيا
فكانت رخوة تسوخ فيها الأقدام ولا ماء بها . وكانت العير وراء ظهر العدومع كثرة عددهم .
فأمّن الله على المسلمين بنصرتهم عليهم . والحال هذه .

قوله : ﴿ ولو تواعدتم لآخفتكم فى الميعاد ﴾ أى لو تواعدتم أنتم والمشركون من أهل مكة
على أن تلتقوا فى هذا الموضع للقتال ، لخالف بعضكم بعضا ، فنبطكم قلتكم وكثرتهم عن
الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من المهابة لرسول الله ﷺ . ﴿ ولكن ﴾ جمع الله بينكم
فى هذا الوطن ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ أى حقيقا بأن يفعل من نصر أوليائه وخذلان

أعدائه وإعزاز دينه وإذلال الكفر ، فأخرج المسلمين لأخذ العير وغنيمتها عند أنفسهم ، وأخرج الكافرين للمدافعة عنها ، ولم يكن فى حساب الطائفتين أن يقع هذا الاتفاق على هذه الصفة . واللام فى ﴿ ليقضى ﴾ متعلقة بمحذوف ، والتقدير : جمعهم ليقضى .

وجملة : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى ﴾ بدل من الجملة التى قبلها ، أى ليموت من يموت عن بينة ويعيش عن بينة ، لئلا يبقى لأحد على الله حجة . وقيل : الهلاك والحياة مستعاران للكفر والإسلام ، أى ليصدر إسلام من أسلم عن وضوح بينة ويقين بأنه دين الحق ، ويصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالطة شبهة . قرأ نافع وخلف وسهل ويعقوب والبرزى وأبو بكر : « من حى » بياءين على الأصل . وقرأ الباقر بياء واحدة على الإدغام ، وهى اختيار أبى عبيد ؛ لأنها كذلك وقعت فى المصحف . ﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ أى سميع بكفر الكافرين عليم به ، وسميع بإيمان المؤمنين عليم به .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ثم وضع مقاسم الفئ فقال : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء ﴾ بعد الذى كان مضى من بدر ﴿ فأن لله خمسة ﴾ إلى آخر الآية . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم عن قيس بن مسلم الجدلى قال : سألت الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب ابن الحنفية عن قول الله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسة ﴾ قال : هذا مفتاح كلام ، لله الدنيا والآخرة . ﴿ وللرسول ولذى القربى ﴾ فاختلفوا بعد وفاة رسول الله ﷺ فى هذين السهمين ، قال قائل منهم : سهم ذى القربى لقربة رسول الله ﷺ . وقال قائل منهم : سهم ذى القربى لقربة الخليفة . وقال قائل منهم : سهم النبى ﷺ للخليفة من بعده ، واجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله ، فكان ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر (١) .

وأخرج ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنمة فضرب ذلك فى خمسة ، ثم قرأ : ﴿ واعلموا أنما غنمتم ﴾ الآية . قال : قوله : ﴿ فأن لله خمسة ﴾ مفتاح كلام ، لله ما فى السموات وما فى الأرض ، فجعل الله سهم الله والرسول واحداً ﴿ ولذى القربى ﴾ فجعل هذين السهمين قوة فى الخيل والسلاح ، وجعل سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل لا يعطيه غيرهم ، وجعل الأربعة الأسهم الباقية للفرس سهماً ولراكبه سهماً ، وللراجل سهماً (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : كانت الغنمة تقسم على خمسة أخماس : فأربعة منها بين من قاتل عليها ، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس ، فربع لله

(١) ابن أبى شيبه فى الجهاد (١٥١٥٣) وابن جرير ٣/١٠ والحاكم ١٢٨/٢ .

(٢) ابن جرير ٣/١٠ والطبرانى (١٢٦٦٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٣٤٣/٥ : « فيه نهشل بن سعيد وهو متروك » .

وللرسول ولذی القربى ، یعنی : قرابة رسول الله ﷺ ، فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئا ، والرابع الثاني لليتامى ، والرابع الثالث للمساكين ، والرابع الرابع لابن السبيل ، وهو : الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين ^(١) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ الآية ، قال : كان يجاء بالغنيمة فتوضع ، يقسمها رسول الله ﷺ على خمسة أسهم ، فيعزل سهما منها ، ويقسم أربعة أسهم بين الناس ، یعنی : لمن شهد الواقعة ، ثم يضرب بيده في جميع السهم الذي عزله ، فما قبض عليه من شيء جعله للكعبة ، فهو الذي سمي الله : لا تجعلوا لله نصيبا فإن لله الدنيا والآخرة ، ثم يعمد إلى بقية السهم فيقسمه على خمسة أسهم : سهم للنبي ﷺ ، وسهم لذی القربى ، وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل ^(٢) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يجعل سهم الله في السلاح والكراع وفي سبيل الله وفي كسوة الكعبة وطبيها ، وما تحتاج إليه الكعبة ، ويجعل سهم الرسول في الكراع والسلاح ونفقة أهله ، وسهم ذی القربى لقرابته يضعه رسول الله ﷺ فيهم مع سهمهم مع الناس ، ولليتامى ، والمساكين : لابن السبيل ثلاثة أسهم يضعها رسول الله فيمن شاء حيث شاء ، ليس لبنی عبد المطلب في هذه الثلاثة الأسهم وللرسول الله ﷺ سهم مع سهام الناس . وأخرج ابن أبي حاتم عن حسين المعلم قال : سألت عبد الله بن بريدة عن قوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ فقال : الذي لله لبنیه ، والذي للرسول لأزواجه . وأخرج الشافعي وعبد الرزاق وابن أبي شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس ؛ أن نجدة كتب إليه يسأله عن ذوی القربى الذين ذكر الله ، فكتب إليه : إنا كنا نرى أنا هم فأبى ذلك علينا قومنا ، وقالوا : قريش كلها ذوو قربي ، وزيادة قوله : وقالوا : قريش كلها ، تفرد بها أبو معشر . وفيه ضعف ^(٣) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس أن نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذی القربى ، ويقول : لمن تراه ؟ فقال ابن عباس : هو لقربي رسول الله ﷺ قسمه لهم رسول الله ﷺ . وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا رأيناه دون حقنا فرددناه عليهم وأبين أن نقبله ، وكان عرض عليهم أن يعيننا نأكلهم ، وأن يقضى عن غارمهم ، وأن يعطى فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك ^(٤) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : رغبت لكم عن غسالة الأيدي لأن لكم في خمس الخمس ما يكفيكم أو يغنيكم . رواه ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن مهدي المصيصي ،

(١) ابن جرير ٤/١٠ .

(٢) ابن أبي شيبة في الجهاد (١٥١٤٥) وابن جرير ٤/١٠ .

(٣) ابن أبي شيبة في الجهاد (١٥٣٠١) ومسلم في الجهاد والسير (١٨١٢/١٤٠) وابن جرير ٥/١٠ .

(٤) ابن أبي شيبة في الجهاد (١٥٢٩٧) .

حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن حنش، عن عكرمة عنه مرفوعاً. قال ابن كثير: هذا حديث حسن الإسناد، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم، وقال يحيى بن معين : يأتي بمناكير (١). أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزهري وعبد الله بن أبي بكر عن جبير بن مطعم: أن النبي ﷺ قسم سهم ذوى القربى من خير على بنى هاشم وبنى المطلب. قال: فمشتيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخوانك من بنى هاشم لا نترك فضلهم لمكانك منهم، رأيت إخواننا من بنى المطلب أعطيتهم دوننا، فإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال : « إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام ». وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٢).

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم ، قال : آل محمد الذين أعطوا الخمس : آل على ، وآل العباس ، وآل جعفر ، وآل عقيل . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : كان للنبي ﷺ شئ واحد من المغنم يصطفيه لنفسه، إما خادم وإما فرس، ثم يصيب بعد ذلك من الخمس. وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن على قال : قلت : يا رسول الله ، ألا وليتني ما خصنا الله به من الخمس ؟ فولانيه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه عنه قال : ولانى رسول الله ﷺ خمس الخمس ، فوضعت مواضعه حياة رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر (٤).

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يوم الفرقان ﴾ قال : هو يوم بدر ، وبدر ما بين مكة والمدينة (٥) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ يوم الفرقان ﴾ قال : هو يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل . وأخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب ، قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان . وأخرجه عنه ابن جرير أيضا .

وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ قال : العدوة الدنيا شاطئ الوادى . ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ قال : أبو سفيان . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : العدوة الدنيا : شفير الوادى الأدنى . والعدوة القصوى : شفير الوادى الأقصى .

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَتَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي

(١) ابن كثير ٣/ ٣٢٤ .

(٢) فى المخطوطة : « مسلم » ، ولم تعزه التحفة إلى مسلم وإنما للبخارى ولعله سهو أو سبق قلم من المصنف والحديث سبق تخريجه .

(٣) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٥٢٩٦) . (٤) صححه الحاكم ٢/ ١٢٨ ، ٣/ ٣٩ ، ٤٠ ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ١٠/ ٧ ، ٨ .

أَعْيَنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

« إذ » منصوب بفعل مقدر ، أى اذكر ، أو هو بدل ثان من يوم الفرقان . والمعنى : أن النبى ﷺ رآهم فى منامه قليلا ، فقص ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سببا لثباتهم . ولو رآهم فى منامه كثيرا ، لفشلوا وجنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الأمر ، هل يلاقونهم أم لا ؟ ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى سلمهم وعصمهم من الفشل والتنازع ، فقللهم فى عين رسول الله ﷺ فى المنام . وقيل : عنى بالنام محل النوم ، وهو العين ، أى فى موضع منامك وهو عينك . روى ذلك عن الحسن . قال الزجاج : هذا مذهب حسن ، ولكن الأول أسوغ فى العربية ؛ لقوله : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء وأن تلك رؤية النوم .

قوله : ﴿ وإذ يريكموهم ﴾ الظرف منصوب بمضمر معطوف على الأول ، أى واذكروا وقت إراءتكم إياهم حال كونهم قليلا ، حتى قال القائل من المسلمين لآخر : أترأهم سبعين ؟ قال : هم نحو المائة . وقلل المسلمين فى أعين المشركين حتى قال قائلهم : إنما هم أكلة جزور ، وكان هذا قبل القتال ، فلما شرعوا فيه كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ، كما قال فى آل عمران : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ [آل عمران : ١٣] ووجه تقليل المسلمين فى أعين المشركين هو : أنهم إذا رأوهم قليلا أفدموا على القتال غير خائفين ، ثم يرونهم كثيرا فيفشلون وتكون الدائرة عليهم ، ويحل بهم عذاب الله وسوط عقابه . واللام فى : ﴿ ليقضى الله أمرا كان مفعولا ﴾ متعلقة بمحذوف كما سبق مثله قريبا . وإنما كرره لاختلاف المعلن به . ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كلها يفعل فيها ما يريد ويقضى فى شأنها ما يشاء .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ إذ يريكموهم الله فى منامك قليلا ﴾ قال : أراه الله إياهم فى منامه قليلا ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك فكان ذلك تثبيتا لهم . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ ولو أراكم كثيرا لفشلتم ﴾ يقول : لجبتم ﴿ ولتنازعتم فى الأمر ﴾ قال : لاختلقتم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى أتم ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه : ﴿ ولكن الله سلم ﴾ يقول : سلم لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم .

وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ وإذ يريكموهم ﴾ الآية قال : لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : ترأهم سبعين ؟ قال : لا بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم ، فسلناه قال : كنا ألفا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : حضض بعضهم على بعض . قال ابن كثير : إسناده صحيح ^(١) . وأخرج ابن إسحاق عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى

قوله : ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أى ليلقى ^(١) بينهم الحرب للثقة بمن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد النعمة عليه من أهل ولايته ^(٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤٥)
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴿

قوله : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ اللقاء : الحرب ، والفئة : الجماعة ، أى إذا حاربتهم جماعة من المشركين ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ لهم ولا تحبوا عنهم ، وهذا لا ينافى الرخصة المتقدمة فى قوله : ﴿ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ فإن الأمر بالثبات هو فى حال السعة ، والرخصة هى فى حال الضرورة . وقد لا يحصل الثبات إلا بالتحريف والتحيز . ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أى اذكروا الله عند جزع قلوبكم فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد . وقيل : المعنى : اثبتوا بقلوبكم واذكروا بالستكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان ، فأمرهم بالذكر حتى يجتمع ثبات القلب واللسان . قيل : وينبغى أن يكون الذكر فى هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرونا على القوم الكافرين ﴾ [البقرة : ٢٥٠] وفى الآية دليل على مشروعية الذكر فى جميع الأحوال ، حتى فى هذه الحالة التى ترجف فيها القلوب وتزيع عندها البصائر ، ثم أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه ، ونهاهم عن التنازع وهو الاختلاف فى رأى ، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل ، وهو الجبن فى الحرب . والفاء جواب النهى ، والفعل منصوب بإضمار أن ، ويجوز أن يكون الفعل معطوفا على ﴿ تنازعوا ﴾ مجزوما بجازمه . قوله : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ قرئ بنصب الفعل ، وجزمه عطفا على تفشلوا على الوجهين . والريح : القوة والنصر ، كما يقال : الريح لفلان : إذا كان غالبا فى الأمر . وقيل : الريح : الدولة ، شبهت فى نفوذ أمرها بالريح فى هبوبها ، ومنه قول الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتتمها فعقبى كل خافقة سكونا

(١) فى المخطوطة : « ليلف » والصحيح ما أثبتناه من ابن كثير ٣/ ٣٢٩ .

(٢) قال ابن كثير ٣/ ٣٢٩ : « ومعنى ذلك : أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر وقلله فى عينه ليطمع فيه » .

وقيل : المراد بالريح : ريح الصبا ؛ لأن بها كان ينصر النبى ﷺ ، ثم أمرهم بالصبر على شذائد الحرب وأخبرهم بأنه مع الصابرين فى كل أمر ينبغى الصبر فيه ، ويا حبذا هذه المعية التى لا يغلب من رزقها غالب ، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات وإن كانت كثيرة ، ثم نهاهم عن أن تكون حالتهم كحالة هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورتاء الناس وهم قريش ، فإنهم خرجوا يوم بدر ليحفظوا العير التى مع أبى سفيان ومعهم القيان والمعازف ، فلما بلغوا الجحفة بلغهم أن العير قد نجت وسلمت ، فلم يرجعوا بل قالوا : لا بد لهم من الوصول إلى بدر ليشربوا الخمر وتغنى لهم القيان وتسمع العرب بمخرجهم ، فكان ذلك منهم بطرا وأشرا وطلبا للثناء من الناس وللتمديح إليهم والفخر عندهم وهو الرياء . قيل : والبطر فى اللغة : التقوى بنعم الله على معاصيه وهو مصدر فى موضع الحال ، أى خرجوا بطرين مرائين . وقيل : هو مفعول له وكذا رياء ، أى خرجوا للبطر والرياء .

وقوله : ﴿ ويصدون ﴾ معطوف على بطرا ، والمعنى كما تقدم ، أى خرجوا بطرين مرائين صادين عن سبيل الله أو للصد عن سبيل الله ، والصد : إضلال الناس والحيلولة بينهم وبين طرق الهداية ، ويجوز أن يكون ﴿ ويصدون ﴾ معطوفا على يخرجون ، والمعنى : يجمعون بين الخروج على تلك الصفة والصد . ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ لا تخفى عليه من أعمالهم خافية فهو مجازيهم عليها .

قوله : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ الظرف متعلق بمحذوف ، أى واذكر يا محمد وقت تزوين الشيطان لهم أعمالهم . والتزوين : التحسين ، وقد روى أن الشيطان تمثل لهم وقال لهم تلك المقالة وهى : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ (١) أى مجير لكم من كل عدو أو من بنى كنانة ، ومعنى الجار هنا : الدافع عن صاحبه أنواع الضرر كما يدفع الجار عن الجار ، وكان فى صورة سراقاة بن مالك بن جعشم (٢) ، وهو من بنى بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بنى بكر أن يأتوهم من ورائهم . وقيل : المعنى : إنه ألقى فى روعهم هذه المقالة . وخيل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ﴿ فلما تراءت الفئتان ﴾ أى فئة المسلمين والمشركين ﴿ نكص على عقبيه ﴾ أى رجع القهقرى ، ومنه قول الشاعر :

ليس النكوص على الأعقاب مكرمة إن المكارم إقدام على الأمل

وقول الآخر :

وما نفع المستأخرين نكوصهم ولا ضر أهل السابقات التقدم

(١) ابن إسحاق ٣٠٤/٢ .

(٢) صحابى ، له شعر ، وله فى كتب الحديث تسعة عشر حديثا ، وكان فى الجاهلية قائما - اقتصاص الأثر وإصابة الفراسة - أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ ، وتوفى عام ٢٤ هـ . الإصابة ١٩/٢ وأمد الغاية ٢٦٤/٢ .

وقيل : معنى نكص ما هنا : بطل كيد وذهب ما خيله . ﴿ وقال إني برىء منكم ﴾ أى تبرأ منهم لما رأى أمارات النصر مع المسلمين بإمداد الله لهم بالملائكة ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إني أرى ما لا ترون ﴾ يعنى الملائكة ، ثم علل بعله أخرى فقال : ﴿ إني أخاف الله ﴾ قيل : خاف أن يصاب بمكرهه من الملائكة الذين حضروا الواقعة . وقيل : إن دعوى الخوف كذب منه ، ولكنه رأى أنه لا قوة له ولا للمشركين فاعتل بذلك ، وجملة : ﴿ والله شديد العقاب ﴾ يحتمل أن تكون من تمام كلام إبليس ، ويحتمل أن تكون كلاما مستأنفا من جهة الله سبحانه .

قوله : ﴿ إذ يقول المنافقون ﴾ الظرف معمول لفعل محذوف هو : اذكر ، ويجوز أن يتعلق بنكص أو بزين أو بشديد العقاب . قيل : المنافقون هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ هم الشاكون من غير نفاق بل لكونهم حديثى عهد بالإسلام فوافقوا المنافقين فى قولهم بهذه المقالة أعنى : ﴿ غر هؤلاء ﴾ أى المسلمين ﴿ دينهم ﴾ حتى تكلفوا ما لا طاقة لهم به من قتال قريش . وقيل : الذين فى قلوبهم مرض : هم المشركون ، ولا يبعد أن يراد بهم اليهود الساكنون فى المدينة وما حولها . وأنهم هم والمنافقون من أهل المدينة قالوا هذه المقالة عند خروج المسلمين إلى بدر لما رأوهم فى قلة من العدد وضعف من العدد ، فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز ﴾ لا يغلبه غالب ، ولا يذل من توكل عليه ﴿ حكيم ﴾ له الحكمة البالغة التى تقصر عندها العقول .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ واذكروا الله ﴾ قال : افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون : عند الضراب بالسيوف . وأخرج الحاكم وصححه ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « ثنتان لا يردان : الدعاء عند النداء ، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا » (١) . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ كان يكره الصوت عند القتال (٢) . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ يقول : لا تختلفوا فتجبنوا ويذهب نصركم . وأخرج الفريابي وابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ قال : نصركم . وقد ذهب ربح أصحاب محمد حين نازعوه يوم أحد .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم ﴾ الآية ، يعنى : المشركين الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان

(١) صححه الحاكم ١١٣/٢ ، ووافقه الذهبى .

(٢) صححه الحاكم ١١٦/٢ ، ووافقه الذهبى .

والدفوف ، فأنزل الله هذه الآية (١) . وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر ، عن مجاهد في الآية قال : أبو جهل وأصحابه يوم بدر . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : كان مشركو قريش الذين قاتلوا نبي الله ﷺ يوم بدر خرجوا ولهم بغى وفخر ، وقد قيل لهم يومئذ : ارجعوا فقد انطلقت غيركم وقد ظفرتهم ، فقالوا : لا والله حتى يتحدث أهل الحجاز بمسيرنا وعددنا . وذكر لنا : أن نبي الله ﷺ قال يومئذ : « اللهم إن قريشا قد أقبلت بفخرها وخيلائها لتجادل رسولك » وذكر لنا أنه قال يومئذ : « جاءت من مكة أفلاذها » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج ، والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم ﴾ وأقبل جبريل على إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده وولى مدبرا وشيعته ، فقال الرجال : يا سراقه ، إنك جار لنا فقال : ﴿ إنني أرى ما لا ترون ﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿ إنني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ (٢) قال : ولما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين وقلل المشركين في أعين المسلمين . فقال المشركون : وما هؤلاء ؟ غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم ، وظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك . فقال الله : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ . وأخرج (٣) الطبراني وأبو نعيم عن رفاعه بن رافع الأنصاري قال : لما رأى إبليس ما تفعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص القتل إليه فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقه بن مالك ، فوكز في صدر الحارث فألقاه ثم خرج هاربا حتى ألقي نفسه في البحر ورفع يديه فقال : اللهم إنني أسألك نظرتك إياي (٤) . وأخرج الواقدي وابن مردويه عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله : ﴿ إنني أرى ما لا ترون ﴾ قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه الملائكة ، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة وقال : ﴿ إنني أخاف الله ﴾ وكذب عدو الله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له به ولا منعة له . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن معمر قال : ذكروا أنهم أقبلوا على سراقه بن مالك بعد ذلك ، فأنكر أن يكون قال شيئا من ذلك .

• وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذ يقول المنافقون ﴾ قال : وهو يومئذ في المسلمين . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله : ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ قال : هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين . وأخرج عبد الرزاق

(١) ابن جرير ١٣/١٠ . (٢) ابن جرير ١٤/١٠ والبيهقي في الدلائل ٧٩/٣ .

(٣) في المطبوعة : « أو خرج » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) الطبراني (٤٥٥٠) وقال الهيثمي في المجمع ٨٠/٦ : « فيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف » وهذا الأثر

روى ابن جرير أيضا عن ابن عباس مثله ١٤/١٠ .

وابن المنذر عن الكلبي فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال : هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا المسلمين قالوا : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن الشعبي نحوه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) ﴾

قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له كما تقدم تحقيقه فى غير موضع ، والمعنى : ولو رأيت ؛ لأن « لو » تقلب المضارع ساضيا . و « إذ » ظرف ل ترى ، والمفعول محذوف ، أى ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم . قيل : أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر . وقيل : هى فيمن قتل ببدر وجواب « لو » محذوف تقديره : لرأيت أمرا عظيما . وجملة : ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ فى محل نصب على الحال ، والمراد بأدبارهم أستاههم ، كنى عنها بالأدبار . وقيل : ظهورهم . قيل : هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيد ذكر التوفى . وقيل : هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار . قوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ قال الفراء ، المعنى : ويقولون : ذوقوا عذاب الحريق ، والجملة معطوفة على يَضْرِبُونَ . وقيل : إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم ، والذوق قد يكون محسوسا ، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار ، وأصله من الذوق بالضم ، والإشارة بقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى ما تقدم من الضرب والعذاب ، والباء فى : ﴿ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ ﴾ سببية ، أى ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصى واقترفتم من الذنوب ، وجملة : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أنه لا يظلمهم ، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبرا لقوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ وهى ﴿ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ ﴾ أى ذلك العذاب بسبب المعاصى ، وبسبب ﴿ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ لأنه سبحانه قد أرسل إليهم رسلا ، وأنزل عليهم كتبه وأوضح لهم السبيل ، وهاداهم النجدين كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٨] .

قوله : ﴿ كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ لما ذكر الله سبحانه ما أنزله بأهل بدر أتبعه بما يدل على أن هذه سنته فى فرق الكافرين . والدأب : العادة ، والكاف فى محل الرفع على الخبرية لمبتدأ

محذوف ، أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ . والمعنى : أنه جوزى هؤلاء كما جوزى أولئك ، فكانت العادة فى عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله فى تعذيب طوائف الكفر ، وجملة قوله : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ مفسرة لدأب آل فرعون ، أى دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله ، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم ، والمراد بذنوبهم : معاصيهم المترتبة على كفرهم ، فيكون الباء فى : ﴿ بذنوبهم ﴾ للملابسة ، أى فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين عنها ، وجملة : ﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى العقاب الذى أنزله الله بهم ، وهو مبتدأ وخبره ما بعده . والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله . والمعنى : أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم ﴿ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط إحسانه وإهمال أوامره ونواهيه ، وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين ، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا ومنّ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم ، كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه ، والعمل به من شكرها وقبولها ، وجملة : ﴿ وأن الله سميع عليم ﴾ معطوفة على ﴿ بأن الله لم يك مغيراً نعمه ﴾ داخلة معها فى التعليل ، أى ذلك بسبب أن الله لم يك مغيراً ، إلخ . وبسبب أن الله سميع عليم : يسمع ما يقولونه ، ويعلم ما يفعلونه . وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف .

ثم كرر ما تقدم ، فقال : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ﴾ لقصد التأكيد مع زيادة أنه كاليان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق ، وقيل : إن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم ، والثانى : باعتبار ما فعل بهم . وقيل : المراد بالأول : كفرهم بالله ، والثانى : تكذيبهم الأنبياء . وقيل غير ذلك مما لا يخلو عن تعسف ، والكلام فى : ﴿ أهلكتناهم بذنوبهم ﴾ كالكلام المتقدم فى : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ . ﴿ وأغرقتنا آل فرعون ﴾ معطوف على أهلكتناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك ، ثم حكم على كلا الطائفتين من آل فرعون والذين من قبلهم ، ومن كفار قريش بالظلم لأنفسهم ، بما تسبوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم ، كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة ﴾ قال : الذين قتلهم الله ببدر من المشركين . وأخرج ابن جرير عن الحسن قال : قال رجل : يا رسول الله ، إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك . قال : « ذلك ضرب الملائكة » وهذا مرسل ^(١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد

(١) ابن جرير ١٧/١٠ .

فى قوله: ﴿ وأدبارهم ﴾ قال: وأستأهمهم، ولكن الله كريم يكنى. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله: ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ قال: نعمة الله: محمد ﷺ، أنعم الله به على قريش فكفروا فنقله الله إلى الأنصار.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِذَا تَقَفْنَا فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ (٥٧) وَإِنَّا نَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَإِنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسِنَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْزُرُونَ (٥٩) وَأَعَدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِيُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ (٦٠) ﴾

قوله: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ أى شر ما يدب على وجه الأرض ﴿ عند الله ﴾ أى فى حكمه ﴿ الذين كفروا ﴾ أى المصرون على الكفر المتنادون فى الضلال. ولذا قال: ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أى إن هذا شأنهم لا يؤمنون أبدا، ولا يرجعون عن الغواية أصلا، وجعلهم شر الدواب لا شر الناس إيماء إلى انسلاخهم عن الإنسانية ودخولهم فى جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم. قوله: ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ بدل من الذين كفروا أو عطف بيان أو فى محل نصب على الذم. والمعنى: أن هؤلاء الكافرين الذين هو شر الدواب عند الله هم هؤلاء الذين عاهدت منهم، أى أخذت منهم عهدهم، ثم هم ﴿ ينقضون عهدهم ﴾ الذى عاهدتهم ﴿ فى كل مرة ﴾ من مرات المعاهدة، والحال أنهم ﴿ لا يتقون ﴾ النقض، ولا يخافون عاقبته ولا يتجنبون أسبابه. وقيل: إن « من » فى قوله: ﴿ منهم ﴾ للتبعض، ومفعول عاهدت محذوف، أى الذين عاهدتهم، وهم بعض أولئك الكفرة، يعنى الاشراف منهم، وعطف المستقبل وهو ﴿ ثم ينقضون ﴾ على الماضى، وهو ﴿ عاهدت ﴾؛ للدلالة على استمرار النقض منهم، وهؤلاء هم قريظة، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يعينوا الكفار فلم يفوا بذلك كما سيأتى، ثم أمر رسول الله ﷺ بالشدة والغلظة عليهم، فقال: ﴿ فَإِذَا تَقَفْنَا فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أى فإما تصادفهم فى ثقاف وتلقاهم فى حالة تقدر عليهم فيها وتتمكن من غلبهم ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ أى ففرق بقتلهم والتكثير بهم من خلفهم المحاربن لك من أهل الشرك حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك مخافة أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء. والثقاف فى أصل اللغة: ما يشد به القناة أو نحوها، ومنه قول النابغة:

تدعو قعينا وقد عض الحديد بها عض الثقاف على صم الأنابيب (١)

(١) البيت يوجد فى ديوانه ص ٥٩ وهو من قصيدته « لم يبق غير طريد »، وقد جاء البيت فى المطبوعة محرفا فقيه: « غص » بدلا من « عض »، وأيضا « ضم » بدلا من « صم ».

يقال : ثقفته : وجدته ، وفلان ثقف : سريع الوجود لما يحاوله ، والتشريد : التفريق مع الاضطراب . وقال أبو عبيدة : ﴿ شرذ بهم ﴾ : سمع بهم . وقال الزجاج : افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم ، يقال : شرذت بنى فلان : قلعتهن عن مواضعهن وطردتهن عنها حتى فارقوها . قال الشاعر :

أطوف فى الأباطح كل يوم مخافة أن يشرذنى حكيم

ومنه شرذ البعير : إذا فارق صاحبه ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « فشرذ بهم » بالذال المعجمة . قال قطرب : التشريد بالذال المعجمة هو : التنكيل ، وبالمهملة : هو التفريق . وقال المهدوى : الذال المعجمة لا وجه لها إلا أن تكون بدلا من الدال المهملة لتقاربهما . قال : ولا يعرف فشرذ فى اللغة ، وقرئ : « من خلفهم » بكسر الميم والفاء .

قوله : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ﴾ أى غشا ونقضا للعهد من القوم المعاهدين ﴿ فأنبذ إليهم ﴾ أى فاطرح إليهم العهد الذى بينك وبينهم ﴿ على سواء ﴾ : على طريق مستوية . والمعنى : أنه يخبرهم إخبارا ظاهرا مكشوبا بالنقض ولا يناجزهم الحرب بغتة . وقيل : معنى ﴿ على سواء ﴾ : على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم أو تستوى أنت وهم فيه . قال الكسائى : السواء : العدل ، وقد يكون بمعنى الوسط ، ومنه قوله : ﴿ فى سواء الجحيم ﴾ [الصافات : ٥٥] ، ومنه قول حسان :

يا ويح أنصار النبى ورهطه بعد المغيب فى سواء الملحد

ومن الأول قول الشاعر :

فاضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يجيبوك إلى سواء

وقيل : معنى ﴿ فأنبذ إليهم على سواء ﴾ : على جهر لا على سر ، والظاهر أن هذه الآية عامة فى كل معاهد يخاف من وقوع النقض منه . قال ابن عطية : والذى يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر بنى قريظة انقضى عند قوله : ﴿ فشرذ بهم من خلفهم ﴾ ، ثم ابتداء تبارك وتعالى فى هذه الآية يأمره بما يصنعه فى المستقبل مع من يخاف منه خيانة ، وجملة : ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ تعليل لما قبلها ، ويحتمل أن تكون تحذيرا لرسول الله ﷺ عن المناجزة قبل أن ينبذ إليهم على سواء ، ويحتمل أن تكون عائدة إلى القوم الذين تخاف منهم الخيانة .

قوله : ﴿ ولا تحسبن ﴾ قرأ ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص بالياء التحتية . وقرأ الباقون بالمشناة من فوق . فعلى القراءة الأولى يكون الذين كفروا : فاعل الحسبان ، ويكون مفعوله الأول محذوفا ، أى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم ، ومفعوله الثانى : سبقوا ، ومعناه : فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم . وعلى القراءة الثانية يكون الخطاب لرسول الله ﷺ . ومفعوله الأول : الذين كفروا ، والثانى : سبقوا . وقرئ : « إنهم سبقوا » ، وقرئ : « يحسبن » بكسر

الياء . وجملة : ﴿إنهم لا يعجزون﴾ تعليل لما قبلها ، أى أنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم . قرأ ابن عامر : « أنهم » بفتح الهمزة ، والباقون بكسرهما ، وكلا القراءتين مفيدة لكون الجملة تعليلية . وقيل : المراد بهذه الآية : من أفلت من وقعة بدر من المشركين . والمعنى : أنهم وإن أفلتوا من هذه الوقعة ونجوا فإنهم لا يعجزون . بل هم واقعون فى عذاب الله فى الدنيا أو فى الآخرة . وقد زعم جماعة من النحويين منهم أبو حاتم أن قراءة من قرأ : « يحسن » بالتحية لحن ، لا تحل القراءة بها ؛ لأنه لم يأت ليحسن بمفعول . وهو يحتاج إلى مفعولين . قال النحاس : وهذا تحامل شديد . ومعنى هذه القراءة : ولا يحسن من خلفهم الذين كفروا سبقوا ، فيكون الضمير يعود على ما تقدم إلا أن القراءة بالتاء أبين . وقال المهدي : يجوز على هذه القراءة أن يكون الذين كفروا فاعلا . والمفعول الأول محذوف ، والمعنى : ولا يحسن الذين كفروا أنفسهم سبقوا . قال مكى : ويجوز أن يضم مع سبقوا « أن » فتسد سد المفعولين ، والتقدير : ولا يحسن الذين كفروا أن سبقوا ، فهو مثل : ﴿أحسب الناس أن يتركوا﴾ [العنكبوت : ٢] فى سد أن سد المفعولين .

ثم أمر سبحانه بإعداد القوة للأعداء ، والقوة : كل ما يتقوى به فى الحرب ، ومن ذلك السلاح والقسى . وقد ثبت فى صحيح مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمى « قالها ثلاث مرات (١) . وقيل : هى الحصون ، والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ متعين قوله : ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ قرأ الحسن وعمر بن دينار وأبو حية : « ومن ربط الخيل » بضم الراء والباء ككتب جمع كتاب . قال أبو حاتم : الرباط من الخيل الخمس فما فوقها ، وهى الخيل التى ترتبط بإزاء العدو . ومنه قول الشاعر :

أمر الإله بربطها لعدوه فى الحرب إن الله خير موفق

قال فى الكشف : والرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله . ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المراقبة ، ويجوز أن يكون جمع ربيط كفصيل وفصال . انتهى (٢) . ومن فسر القوة بكل ما يتقوى به فى الحرب جعل عطف الخيل من عطف الخاص على العام وجملة : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ فى محل نصب على الحال ، والترهيب : التخويف . والضمير فى : ﴿ به ﴾ عائذ إلى « ما » فى ﴿ ما استطعتم ﴾ أو إلى المصدر المفهوم من ﴿ وأعدوا ﴾ وهو الإعداد . والمراد بعدو الله وعدوهم : هم المشركون من أهل مكة وغيرهم من مشركى العرب . قوله : ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ معطوف على عدو الله وعدوكم ، ومعنى من دونهم : من

(١) أحمد ٤ / ١٥٧ ومسلم فى الإمامة (١٩١٧ / ١٦٧) وأبو داود فى الجهاد (٢٥١٤) والترمذى فى التفسير

(٣٠ - ٤٣) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨١٣) والدارمى فى الجهاد ٢ / ٢٠٤ .

(٢) الكشف ٢ / ٢٣٢ .

غيرهم . قيل : هم اليهود . وقيل : فارس والروم . وقيل : الجن ، ورجحه ابن جرير (١) . وقيل : المراد بالآخرين من عدوهم : كل من لا تعرف عداوته ، قاله السهلى . وقيل : هم بنو قريظة خاصة ، وقيل غير ذلك ، والأولى الوقف فى تعيينهم لقوله : ﴿ لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ . قوله : ﴿ وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله ﴾ أى فى الجهاد وإن كان يسيرا حقيرا ﴿ يوف إليكم ﴾ جزاؤه فى الآخرة ، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة كما قررناه سابقا . ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ فى شىء من هذه النفقة التى تنفقونها فى سبيل الله ، أى من ثوابها بل يصير ذلك إليكم وافيا وافرا كاملا ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ [النساء : ٤٠] . ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة قال : نزلت ﴿ إن شر الدواب عند الله ﴾ الآية فى ستة رهط من اليهود فيهم ابن تابوت . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم ﴾ قال : قريظة يوم الخندق مالوا على رسول الله ﷺ أعداءه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ قال : نكل بهم من بعدهم . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : نكل بهم من وراءهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد ابن جبيرة فى الآية قال : أنذر بهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : عظ بهم من سواهم من الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : أخفهم بهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يقول : لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال : قد وضعت السلاح وما زلنا فى طلب القوم فأخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة ... ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنهم لا يعجزون ﴾ قال : لا يفوتونا . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ قال : الرمي والسيوف والسلاح .

وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ قال : أمرهم بإعداد الخيل . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى الشعب عن عكرمة فى الآية قال : القوة : ذكور الخيل ، والرباط : الإناث . وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد مثله . وأخرج ابن أبى شيبه وابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب فى الآية قال : القوة : الفرس إلى السهم فما دونه . وأخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : القوة : الحصون ، ﴿ ومن رباط الخيل ﴾ قال : الإناث . وأخرج الفريابي وابن أبى شيبه

وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ قال : تخزون به عدو الله وعدوكم . وقد ورد في استحباب الرمي وما فيه من الأجر أحاديث كثيرة ، وكذلك ورد في استحباب اتخاذ الخيل وإعدادها وكثرة ثواب صاحبها أحاديث لا يتسع المقام لبسطها . وقد أفرد ذلك جماعة من العلماء بمصنفات .

﴿ وَإِنْ جَنَّحُوا لِلْإِسْلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) .

الجنوح: الميل ، يقال: جنح الرجل إلى الرجل: مال إليه، ومنه قيل للأضالع : جوانح ؛ لأنها مالت إلى الحنوة ، وجنحت الإبل : مالت أعناقها في السير ، ومنه قول ذي الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحه بذكراك والعيس المراسيل جنح

ومثله قول عنترة :

جوانح قد أيقن أن قبيله إذا ما التقى الجمعان أول غالب

يعنى الطير ، والسلم : الصلح . وقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيصن والمفضل بكسر السين ، وقرأ الباقر بفتحها ، وقرأ العقيلي : « فاجنح » بضم النون ، وقرأ الباقر بفتحها . والأولى : لغة قيس ، والثانية : لغة ثميم . قال ابن جني : ولغة قيس هي القياس ، والسلم تؤنث كما تؤنث الحرب ، أو هي مؤولة بالخصلة ، أو الفعل . وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟ ف قيل : هي منسوخة بقوله: ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ [التوبة : ٥] . وقيل : ليست بمنسوخة ؛ لأن المراد بها الجزية ، وقد قبلها منهم الصحابة فمن بعدهم ، فتكون خاصة بأهل الكتاب . وقيل : إن المشركين إن دعوا إلى الصلح جاز أن يجابوا إليه ، وتسلت المانعون من مصالحة المشركين بقوله تعالى : ﴿ فلا تهنوا ﴾ (١) وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ [محمد : ٣٥] . وقيدوا عدم الجواز بما إذا كان المسلمون في عزة وقوة لا إذا لم يكونوا كذلك ، فهو جائز كما وقع منه ﷺ من مهادنة قريش ، وما زالت الخلفاء والصحابة على ذلك ، وكلام أهل العلم في هذه المسألة معروف مقرر في مواضعه ﴿ وتوكل على الله ﴾ في جنوحك للسلم ولا تخف من مكرهم (٢) ، ف ﴿ إنه ﴾ سبحانه ﴿ هو السميع ﴾ لما يقولون ﴿ العليم ﴾ بما يفعلون .

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴾ بالصلح ، وهم مضمرون الغدر والخدع ﴿ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ ﴾ أي كافيك ما تخافه من شرورهم بالنكث والغدر ، وجملة ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾

(١) في المطبوعة : « ولا تهنوا » .

(٢) في المطبوعة : « مكرهم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تعليلية ، أى لا تخف من خدعهم ومكرهم فإن الله الذى قواك عليهم بالنصر فيما مضى - وهو يوم بدر- هو الذى سينصرك ويقويك عليهم عند حدوث الخدع والنكث ، والمراد بالمؤمنين : المهاجرون والأنصار ، ثم بيّن كيف كان تأييده بالمؤمنين فقال : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وظاهره العموم وأن ائتلاف قلوب المؤمنين هو من أسباب النصر التى أيد الله بها رسوله . وقال جمهور المفسرين : المراد : الأوس والخزرج ، فقد كان بينهم عصبية شديدة وحروب عظيمة فألف الله بين قلوبهم بالإيمان برسول الله ﷺ . وقيل : أراد التآليف بين المهاجرين والأنصار ، والحمل على العموم أولى ، فقد كانت العرب قبل البعثة المحمدية يأكل بعضهم بعضا ولا يحترم ماله ولا دمه ، حتى جاء الإسلام فصاروا يدا واحدة ، وذهب ما كان بينهم من العصبية ، وجملة : ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم﴾ مقررمة لمضمون ما قبلها ، والمعنى : أن ما كان بينهم من العصبية والعداوة قد بلغ إلى حد لا يمكن دفعه بحال من الأحوال ، ولو أنفق الطالب له جميع ما فى الأرض لم يتم له ما طلبه من التآليف ؛ لأن أمرهم فى ذلك قد تفاقم جدا ﴿ولكن الله أَلَفَ بينهم﴾ بعظيم قدرته وبديع صنعه ﴿إنه عزيز﴾ لا يغالبه مغالب ، ولا يستعصى عليه أمر من الأمور ﴿حكيم﴾ فى تدبيره ونفوذه ونهيه وأمره .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿وإن جنحوا للسلم﴾ قال : قريظة . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : نزلت فى بنى قريظة نسختها : ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . . .﴾ إلى آخر الآية [محمد : ٣٥] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : السلم : الطاعة . وأخرج أبو الشيخ عنه فى الآية قال : إن رضوا فارض . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : إن أرادوا الصلح فأرده . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : نسختها هذه الآية : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ إلى قوله : ﴿وهم صاغرون﴾ [التوبة : ٢٩] . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ، والنحاس فى ناسخه ، وأبو الشيخ عن قتادة قال : ثم نسخ ذلك : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [التوبة : ٥] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿وإن يريدوا أن يخدعوك﴾ قال : قريظة . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿وبالمؤمنين﴾ قال : بالأنصار . وأخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه أيضا . وأخرج ابن عساكر عن أبى هريرة قال : مكتوب على العرش لا إله إلا الله ، أنا الله وحدى لا شريك لى ، ومحمد عبدى ورسولى ، أيدته بعلمى ، وذلك قوله : ﴿هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ .

وأخرج ابن المبارك وابن أبى شيبه وابن أبى الدنيا والنسائى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وإخاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود : أن

هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ... ﴾ الآية (١) .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وأبو الشيخ ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، واللفظ له عن ابن عباس قال : قرابة الرحم تقطع ، ومنة المنعم تكفر ، ولم نر مثل تقارب القلوب ، يقول الله : ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ... ﴾ الآية (٢) . وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم والبيهقى عنه نحوه ، وليس فى هذا عن ابن عباس ما يدل على أنه سبب النزول ، ولكن الشأن فى قول ابن مسعود رضى الله عنه : إن هذه الآية نزلت فى المتحابين فى الله مع أن الواقع قبلها : ﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ والواقع بعدها : ﴿ يأياها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ ومع كون الضمير فى قوله : ﴿ ما ألقت بين قلوبهم ﴾ يرجع إلى المؤمنين المذكورين قبله بلا شك ولا شبهة ، وكذلك الضمير فى قوله : ﴿ ولكن الله ألف بينهم ﴾ فإن هذا يدل على أن التأليف المذكور هو بين المؤمنين الذين أيد الله بهم رسوله ﷺ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) ﴾

قوله : ﴿ يأياها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ ليس هذا تكريرا لما قبله فإن الأول مقيد بإرادة الخدع ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ فهذه كفاية خاصة ، وفى قوله : ﴿ يأياها النبى حسبك الله ﴾ كفاية عامة غير مقيدة ، أى حسبك الله فى كل حال ، والواو فى قوله : ﴿ ومن اتبعك ﴾ يحتمل أن تكون للعطف على الاسم الشريف ، والمعنى : حسبك الله وحسبك المؤمنين ، أى كافيك الله وكافيك المؤمنين ، ويحتمل أن تكون بمعنى مع كما تقول : حسبك وزيدا درهم ، والمعنى : كافيك وكافى المؤمنين الله ؛ لأن عطف الظاهر على المضمرة فى مثل هذه الصورة ممتنع كما تقرر فى علم النحو ، وأجازه الكوفيون . قال الفراء : ليس بكثير فى كلامهم أن تقول : حسبك وأخيك ، بل المستعمل أن يقال : حسبك وحسب

(١) ابن المبارك فى الزهد (٣٦٣) وابن أبى شيبه ١٣ / ٥٦٧ ولكنه عن مجاهد ، وابن أبى الدنيا فى الإخوان (١٤) والنسائى فى التفسير (٢٣٠) والبزار فى كشف الأستار (٢٢١٥) وصححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ ووافقه الذهبى ، والذهبى فى السير ٥ / ٣٩٦ ، ٣٩٧ والبيهقى فى الشعب (٩٠١٣) ط : الكتب العلمية . وذكره الهيثمى فى المجمع ٧ / ٣٠ ، ٣١ وقال : « رواه البزار وزجاله رجال الصحيح غير جنادة بن سلم وهو ثقة » كذا قال . وفى مسند البزار : « مسلم بن جنادة » وهو الصواب كما لا يخفى .

(٢) البيهقى فى الشعب (٩٠٣٢ — ٩٠٣٤) .

أخيك بإعادة الجار ، فلو كان قوله : ﴿ ومن اتبعك ﴾ مجرورا لقليل : حسبك الله وحسب من اتبعك ، واختار النصب على المفعول معه التحاس . وقيل : يجوز أن يكون المعنى : ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله فحذف الخبر .

وقوله : ﴿ حرض المؤمنين على القتال ﴾ أى حثهم وحضهم ، والتحريض فى اللغة : المبالغة فى الحث وهو : كالتحريض ، مأخوذ من الحرض ، وهو أن يهكك المرض ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت كأنه ينسبه إلى الهلاك لو تخلف عن الأمور به . ثم بشرهم تشبها لقلوبهم وتسكيناً لخوارهم بأن الصابرين منهم فى القتال يغلبون عشرة أمثالهم من الكفار ، فقال : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ ثم زاد هذا إيضاحاً مفيداً لعدم اختصاص هذه البشارة بهذا العدد ، بل هى جارية فى كل عدد فقال : ﴿ وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا ﴾ وفى هذا دلالة على أن الجماعة من المؤمنين قليلا كانوا أو كثيرا لا يغلبهم عشرة أمثالهم من الكفار بحال من الأحوال ، وقد وجد فى الخارج ما يخالف ذلك . فكم من طائفة من طوائف الكفار يغلبون من هو مثل عشرهم من المسلمين ، بل مثل نصفهم بل مثلهم . وأجيب عن ذلك بأن وجود هذا بالخارج لا يخالف ما فى الآية لاحتمال ألا تكون الطائفة من المؤمنين متصفة بصفة الصبر . وقيل : إن هذا الخبر الواقع فى الآية هو فى معنى الأمر ، كقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، والمطلقات يترصدن ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . فالْمُؤْمِنُونَ كانوا مأمورين من جهة الله سبحانه بأن تثبت الجماعة منهم لعشرة أمثالهم ، ثم لما شق ذلك عليهم واستعظموه خفف عنهم ورخص لهم لما علمه سبحانه من وجود الضعف فيهم فقال : ﴿ فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ إلى آخر الآية ، فأوجب على الواحد أن يثبت لاثنتين من الكفار . وقرأ حمزة وحفص عن عاصم : ﴿ ضعفا ﴾ بفتح الضاد .

وقوله : ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يغلبوا ﴾ ، أى إن هذا الغلب بسبب جهلهم وعدم فقههم ، وأنهم يقاتلون على غير بصيرة ، ومن كان هكذا فهو مغلوب فى الغالب . وقد قيل فى نكتة التنصيص على غلب العشرين للمائتين ، والمائة للألف : إن سراياه التى كان يبعثها ﷺ كان لا ينقص عددها عن العشرين ولا يجاوز المائة . وقيل فى التنصيص فيما بعد ذلك على غلب المائة للمائتين والألف للألفين : على أنه بشارة للمسلمين بأن عساكر الإسلام سيجاوز عددها العشرات والمئات إلى الألوف ، ثم أخبرهم بأن هذا الغلب هو بإذن الله وتسهيله وتيسيره لا بقوتهم وجلادتهم ، ثم بشرهم بأنه مع الصابرين ، وفيه الترغيب إلى الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية به ، وأنه من أعظم أسباب النجاح والفلاح والنصر والظفر ؛ لأن من كان الله معه لم يستقم لأحد أن يغلبه . وقد اختلف أهل العلم هل هذا التخفيف نسخ أم لا ؟ ولا يتعلق بذلك كثير فائدة .

وقد أخرج البزار عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم ، وأنزل الله : ﴿ يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ . وأخرج الطبرانى

وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة ، ثم إن عمر أسلم صاروا أربعين فنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ (٢) . وأخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزهري في الآية قال : نزلت في الأنصار . وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حسبك الله وحسب من اتبعك .

وأخرج البخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ﴾ فكتب عليهم ألا يفر واحد من العشرة ، وألا يفر عشرون من مائتين . ثم نزلت : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ... ﴾ الآية ، فكتب ألا يفر مائة من مائتين . قال سفيان : وقال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا (٣) ، وإن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو في سعة من تركهم . وأخرج البخاري ، والنحاس في ناسخه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ... ﴾ الآية . قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٤) .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَفْخَرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) .

هذا حكم آخر من أحكام الجهاد . ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ ﴾ ما صح له وما استقام ، وقرأ أبو عمرو وسهيل ويعقوب ويزيد والمفضل أن تكون بالفوقية ، وقرأ الباقر بالتحتية ، وقرأ أيضاً يزيد والمفضل : « أسارى » ، وقرأ الباقر : ﴿ أُسْرَى ﴾ والأسرى : جمع أسير ، مثل : قتلى وقتيل ، وجرحى وجريح . وقال في جمع أسير أيضاً : أسارى بضم الهمزة وبفتحةا ، وهو مأخوذ من الأسر ، وهو القيد ؛ لأنهم كانوا يشدون به الأسير فسمى كل أخيد

(١) الطبراني (١٢٤٧٠) وقال الهيثمي في المجمع ٧ / ٣١ : « وفيه إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب » .

(٢) قال ابن كثير ٣ / ٣٤٤ : « وهذا فيه نظر ؛ لأن هذه الآية مدنية ، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة ، وقبل الهجرة إلى المدينة » .

(٣) البخاري في التفسير (٤٦٥٢) والبيهقي في الشعب (٤٣١٠) ورجاله كلهم ثقات .

(٤) البخاري في التفسير (٤٦٥٣) والبيهقي ٩ / ٧٦ .

وإن لم يشد بالقيد : أسيرا . قال الأعشى :

وقيدنى الشعر فى بيته كما قيدت الأسرات الحمارا

وقال أبو عمرو بن العلاء : الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون ، والأسارى : هم الموثقون ربطا . والإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ؛ تقول العرب : أثخن فلان هذا الأمر ، أى بالغ فيه . فالمعنى : ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى قتل الكافرين ويستكثر من ذلك . وقيل : معنى الإثخان : التمكن . وقيل : هو القوة . وأخبر الله سبحانه أن قتل المشركين يوم بدر كان أولى من أسرهم وفدائهم ثم لما كثر المسلمون رخص الله فى ذلك فقال : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ [محمد : ٤] كما يأتى فى سورة القتال إن شاء الله . قوله : ﴿ تريدون عرض ﴾ الحياة ﴿ الدنيا ﴾ أى نفعها ومتاعها بما قبضتم من الفداء ، وسمى عرضا ؛ لأنه سريع الزوال ، كما تزول الأعراض التى هى مقابل الجواهر ﴿ والله يريد الآخرة ﴾ أى يريد لكم الدار الآخرة بما يحصل لكم من الثواب فى الإثخان بالقتل . وقرئ : ﴿ يريد الآخرة ﴾ بالجر على تقدير مضاف وهو المذكور قبله ، أى والله يريد عرض الآخرة ﴿ والله عزيز ﴾ لا يغالب ﴿ حكيم ﴾ فى كل أفعاله .

قوله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ اختلف المفسرون فى هذا الكتاب الذى سبق ما هو ؟ على أقوال : الأول : ما سبق فى علم الله من أنه سيحل لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرمة على سائر الأمم . والثانى : أنه مغفرة الله لأهل بدر ، ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، كما فى الحديث الصحيح : « إن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (١) . القول الثالث : هو أنه لا يعذبهم ورسوله ﷺ فيهم كما قال سبحانه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ [الأنفال : ٣٣] . القول الرابع : أنه لا يعذب بذنب فعله جاهلا لكونه ذنبا . القول الخامس : أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتئاب الكبائر . القول السادس : أنه لا يعذب أحدا إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهى ، ولم يتقدم نهى عن ذلك . وذهب ابن جرير الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلية تحت اللفظ وأنه يعمها ﴿ لمسكم ﴾ أى حل بكم ﴿ فيما أخذتم ﴾ أى لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿ عذاب عظيم ﴾ والفاء فى : ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ لترتيب ما بعدها على سبب محذوف ، أى قد أبحت لكم الغنائم ، فكلوا مما غنمتم ، ويجوز أن تكون عاطفة على مقدر محذوف ، أى اتركوا الفداء فكلوا مما غنمتم من غيره . وقيل : إن : « ما » عبارة عن الفداء ، أى كلوا من الفداء الذى غنمتم فإنه من جملة الغنائم التى أحلها الله لكم ، و ﴿ حلالا طيبا ﴾ متصيان على الحال أو صفة المصدر المحذوف ، أى أكلا حلالا طيبا ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما يستقبل فلا تقدموا على

(١) البخارى فى التفسير (٤٨٩٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٤ / ١٦١) والترمذى فى التفسير (٣٣٠٥) وقال : « حسن صحيح » وكلهم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

شئ لم يأذن الله لكم به ﴿ إن الله غفور ﴾ لما فرط منكم ﴿ رحيم ﴾ بكم ، فلذلك رخص لكم في أخذ الفداء في مستقبل الزمان .

وقد أخرج أحمد عن أنس قال : استشار النبي ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يأيتها الناس ، إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » ، فقام عمر فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد فقال مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق فقال : يا رسول الله ، نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء . فعفا عنهم وقبل منهم الفداء ، فأنزل الله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ... ﴾ الآية (١) .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك فاستبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يا رسول الله ، كذبوك وأخرجوك وقتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ، انظر واديا كثير الخطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس - وهو يسمع : قطعت رحمك ، فدخل النبي ﷺ عليهم ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال قوم : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ومثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ [إبراهيم : ٣٦] . ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : ١١٨] . ومثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام إذ قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦] . ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الآليم ﴾ [يونس : ٨٨] . أنتم عالة فلا ينفلت أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق » ، فقال عبد الله : يا رسول الله ، إلا سهيل ابن بيضاء فإنه سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال

(١) أحمد ٣ / ٢٤٣ وقال الهيثمي في المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب وهو كثير الغلط والخطأ ، ولا يرجع إذا قيل له الصواب ، وبقي رجال أحمد رجال الصحيح » .

رسول الله ﷺ : «إلا سهيل ابن بيضاء»، فأنزل الله : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى...﴾ الآية (١).
وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن علي قال : قال النبي ﷺ في الأسرى يوم بدر : « إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتهم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم ، فكان آخر السبعين ثابت بن قيس استشهد باليمامة » (٢) . وأخرج عبد الرزاق في مصنفه وابن أبي شيبه عن عبيدة نحوه (٣) . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر ، أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه . فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إني لم أتم الليلة من أجل عمي العباس ، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر : فأتيتهم؟ قال : « نعم » فأتى عمر الأنصار فقال : أرسلوا العباس . فقالوا : لا والله لا نرسله . فقال لهم عمر : فإن كان لرسول الله ﷺ رضا ، قالوا : فإن كان لرسول الله ﷺ رضا فخذ ، فأخذه عمر ، فلما صار في يده قال له : يا عباس ، أسلم ، فوالله إن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب ، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك ، قال : فاستشار رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : عشيرتك فأرسلهم ، فاستشار عمر ، فقال : اقتلهم ، ففاداهم رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى...﴾ الآية (٤) .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿حتى يثخن في الأرض﴾ يقول : حتى يظهروا على الأرض . وأخرج ابن أبي شيبه وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : الإثخان : هو القتل . وأخرج ابن أبي شيبه وابن المنذر عن مجاهد أيضا في الآية قال : ثم نزلت الرخصة بعد : إن شئت فمن ، وإن شئت ففاد . وأخرج ابن المنذر عن قتادة : ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ قال : أراد أصحاب محمد ﷺ يوم بدر الفداء ففادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف . وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة : ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ قال : الخراج . وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ قال : سبق لهم المغفرة . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : ما سبق لأهل بدر من السعادة . وأخرج النسائي وابن مردويه وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : سبقت لهم من الله الرحمة قبل أن يعملوا بالعصية (٥) . وأخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : سبق ألا يعذب

(١) ابن أبي شيبه في المغازي (١٨٥٣٧) وأحمد ١ / ٣٨٣ والترمذي في التفسير (٣٠٨٤) وقال : « حديث حسن ، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه » والطبراني (١٠٢٥٧ ، ١٠٢٥٨) وقال الهيثمي في المجمع ٦ / ٩٠ : « رواه الطبراني أيضا وفيه أبو عبيدة لم يسمع من أبيه ، ولكن رجاله ثقات ، وفي رواية عند الطبراني ... وهي متصلة وفيها موسى بن مطير وهو ضعيف » وصححه الحاكم ٣ / ٢١ ، ٢٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الدلائل ٣ / ١٣٨ ، ١٣٩ وفي السنن ٦ / ٣٢١ .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ١٤٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي ٦ / ٣٢١ .

(٣) عبد الرزاق (٩٤٠٢) وابن أبي شيبه (١٨٥٣٣) .

(٤) صححه الحاكم ٢ / ٣٢٩ وقال الذهبي : « على شرط مسلم » .

(٥) النسائي في التفسير (٢٣١) إسناده حسن تفرد به النسائي ورجاله ثقات غير علي بن أبي طلحة الوالبي وثقه بعضهم وضعفه يعقوب بن سفيان؛ ولذا قال عنه الحافظ : « صدوق قد يخطئ » فهو حسن الحديث إن شاء الله .

أحدا حتى يبين له ويتقدم إليه .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ .

اختلاف القراء في أسرى (١) والأسارى هو هنا كما سبق في الآية قبل هذه . خاطب الله النبي ﷺ بهذا ، أى قل لهؤلاء الأسرى الذين هم في أيديكم أسرتموهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء : ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾ من حسن إيمان ، صلاح نية ، وخلوص طوية ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ ﴾ من الفداء ، أى يعوضكم في هذه الدنيا رزقا خيرا منه وأنفع لكم ، أو في الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة بالأعمال الصالحة ﴿ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ شأنه المغفرة لعباده والرحمة لهم ، ولما ذكر ما ذكره من العوض لمن علم في قلبه خيرا ذكر من هو ضد ذلك منهم فقال : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ ﴾ بما قالوه لك بالستهم من أنهم قد آمنوا بك وصدقوك ولم يكن ذلك منهم عن عزيمة صحيحة ونية خالصة ، بل هو مكررة ومخادعة ، فليس ذلك بمستبعد منهم ، فإنهم قد فعلوا ما هو أعظم منه ، وهو أنهم خانوا الله من قبل أن تظفر بهم ، فكفروا به وقاتلوا رسوله ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ بأن نصرك عليهم في يوم بدر فقتلت منهم من قتلت وأسرت من أسرت ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بما فى ضمائرهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى أفعاله بهم .

وقد أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص وبعثت فيه بقلادة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق رقة شديدة وقال : « إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا لَهَا أَسِيرَهَا » ، وقال العباس : إِنْ كُنْتُ مُسْلِمًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ » ، فَإِنْ تَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ ، فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخَوَيْكَ نَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَحَلِيفَكَ عَتَبَةَ بْنَ عَمْرِو » ، قَالَ : مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَأَيْنَ الْمَالُ الَّذِي دَفَنْتِ أَنْتِ وَأُمُّ الْفَضْلِ ؟ فَقُلْتُ لَهَا : إِنْ أَصَبْتُ فَهَذَا الْمَالُ لِنَبِيِّ ؟ » فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ مَا عِلْمُهُ غَيْرِي وَغَيْرَهَا ، فَاحْسَبْ لِي مَا أَصَبْتُمْ مِنْ عَشْرُونَ أَوْقِيَّةً مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي ، قَالَ : « لَا أَفْعَلُ » ، فَفَدَى نَفْسَهُ وَابْنِي أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ ، وَنَزَلَتْ : ﴿ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ... ﴾ الآية ، فَأَعْطَانِي مَكَانَ الْعَشْرِينَ الْأَوْقِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ عَشْرِينَ عَبْدًا كُلَّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يُضْرَبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفَرَةِ اللَّهِ (٢) .

وأخرج ابن سعد ، والحاكم وصححه عن أبى موسى أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى

(١) هكذا بالمخطوطة ، ولعله فى « الأسارى » فقط .

(٢) صححه الحاكم ٢٣/٣ على شرط مسلم ، ورافقه الذهبي ، والبيهقى ٣٢٢/٦ .

رسول الله ﷺ بمال من البحرين ثمانين ألفاً ، فما أتى رسول الله ﷺ مال أكثر منه ، فنشر على حصير ، وجاء الناس فجعل رسول الله ﷺ يعطيهم ، وما كان يومئذ عدد ولا وزن ، فجاء العباس فقال : يا رسول الله ، إني أعطيت فدائي وفداء عقيل يوم بدر ، أعطني من هذا المال ، فقال : « خذ » فحشا في خميصته ، ثم ذهب ينصرف فلم يستطع ، فرفع رأسه وقال : يا رسول الله ، ارفع عليّ ، فتبسم رسول الله ﷺ وذهب وهو يقول : أما أحد اللذين وعد الله فقد أنجزنا وما ندرى ما يصنع في الأخرى ﴿ قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم ﴾ فهذا خير مما أخذ مني ولا أدرى ما يصنع في المغفرة (١) . والروايات في هذا الباب كثيرة . وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في الأسارى يوم بدر منهم العباس بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبي طالب (٢) . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه في قوله : ﴿ وإن يريدوا خيانتك ﴾ إن كان قولهم كذبا ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ فقد كفروا وقتلوك فأمكنك الله منهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَفْرَضْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) ﴾

ختم الله سبحانه هذه السورة بذكر الموالاة ليعلم كل فريق وليه الذي يستعين به ، وسمى سبحانه المهاجرين إلى المدينة بهذا الاسم ؛ لأنهم هجروا أوطانهم وفارقوها طلباً لما عند الله ، وإجابة لداعيه . ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ﴾ هم الأنصار ، والإشارة بقوله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول الأول والآخر ، وهو مبتدأ وخبره الجملة المذكورة بعده ، ويجوز أن يكون ﴿بَعْضُهُمْ﴾ بدلاً من اسم الإشارة ، والخبر ﴿أُولِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى بعضهم أولياء بعض في النصرة والمعونة . وقيل : المعنى : إن بعضهم أولياء بعض في الميراث . وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة ، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ .

(١) ابن سعد ١٥/٤ ، ١٦ ، وصححه الحاكم ٣/٢٢٩ ، ٣٣٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(٢) ابن سعد ١٥/٤ .

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة : ﴿ مِنْ وَلَايَتِهِمْ ﴾ بكسر الواو . وقرأ الباقون بفتحها ، أى ما لكم من نصرتهم وإعانتهم ، أو من ميراثهم ، ولو كانوا من قراباتكم لعدم وقوع الهجرة منهم ﴿ حَتَّى يَهَاجَرُوا ﴾ فيكون لهم ما كان للطائفة الأولى الجامعين بين الإيمان والهجرة ﴿ وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ ﴾ أى هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا إذا طلبوا منكم النصرة لهم على المشركين ﴿ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ ﴾ أى فواجب عليكم النصر ﴿ إِلَّا ﴾ أن يستنصروكم ﴿ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ فلا تنصروهم ولا تنقضوا العهد الذى بينكم وبين أولئك القوم حتى تنقضى مدته . قال الزجاج : ويجوز : فعليكم النصر بالنصب على الإغراء .

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى بعضهم ينصر بعضا ويتولاه فى أموره ، أو يرثه إذا مات ، وفيه تعريض للمسلمين بأنهم لا ينصرون الكفار ولا يتولونهم . قوله : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ الضمير يرجع إلى ما أمروا به قبل هذا من موالة المؤمنين ومناصرتهم على التفصيل المذكور ، وترك موالة الكافرين ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى تقع فتنة إن لم تفعلوا ذلك ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ أى مفسدة كبيرة فى الدين والدنيا ، ثم بين سبحانه حكما آخر يتعلق بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين فى سبيل الله والمؤمنين الذين آووا من هاجر إليهم ونصروهم وهم الأنصار ، فقال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أى الكاملون فى الإيمان ، وليس فى هذا تكرير لما قبله فإنه وارد فى الثناء على هؤلاء ، والأول وارد فى إيجاب الموالة والنصرة ، ثم أخبر سبحانه أن ﴿ لَهُمْ ﴾ منه ﴿ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم فى الآخرة ولهم فى الدنيا ﴿ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ خالص عن الكدر طيب مستلذ . ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار فهو من جملتهم ، أى من جملة المهاجرين الأولين والأنصار فى استحقاق ما استحقوه من الموالة والمنصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم ، ثم بين سبحانه بأن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض من غيرهم ممن لم يكن بينه وبينهم رحم فى الميراث ، والمراد بهم : القرابات ، فيتناول كل قرابة . وقيل : المراد بهم هنا : العصابات ، قالوا : ومنه قول العرب : وصلتك رحم ، فإنهم لا يريدون قرابة الأم . قالوا : ومنه قول قتيلة :

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

ولا يخفاك أنه ليس فى هذا ما يمنع من إطلاقه على غير العصابات ، وقد امتدل بهذه الآية من أثبت ميراث ذوى الأرحام ، وهم من ليس بعصبة ولا ذى سهم على حسب اصطلاح أهل علم الموارث ، والخلاف فى ذلك معروف مقرر فى مواضعه . وقد قيل : إن هذه الآية ناسخة للميراث بالموالة والنصرة عند من فسر ما تقدم من قوله : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وما بعده بالتوارث ، وأما من فسرهما بالنصرة والمعونة فيجعل هذه الآية إخبارا منه سبحانه وتعالى بأن

القربات ﴿ بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أى فى حكمه أو فى اللوح المحفوظ أو فى القرآن ، ويدخل فى هذه الأولوية الميراث دخولا أوليا لوجود سببه — أعنى — القرابة : ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأشياء كائنا ما كان ، ومن جملة ذلك ما تضمنته هذه الآيات .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا... ﴾ الآية قال : إن المؤمنين كانوا على عهد رسول الله ﷺ على ثلاث منازل ، منهم المؤمن المهاجر المبين لقومه ، وفى قوله : ﴿ والذين آووا ونصروا ﴾ قال : آووا ونصروا وأعلنوا ما أعلن أهل الهجرة وشهروا السيوف على من كذب وجحد ، فهذان مؤمنان جعل الله بعضهم أولياء بعض ، وفى قوله : ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ﴾ قال : كانوا يتوارثون بينهم إذا توفى المؤمن المهاجر بالولاية فى الدين ، وكان الذى آمن ولم يهاجر لا يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر ، فبإمر الله المؤمنين المهاجرين من ميراثهم ، وهى الولاية التى قال : ﴿ ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ كان حقا على المؤمنين الذين آووا ونصروا إذا استنصروهم فى الدين أن ينصروهم إن قوتلوا إلا أن يستنصروا على قوم بينهم وبين النبی ﷺ ميثاق ، فلا نصر لهم عليهم إلا على العدو الذى لا ميثاق لهم ، ثم أنزل الله بعد ذلك أن ألحق كل ذى رحم برحمه من المؤمنين الذين آمنوا ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ﴾ فجعل لكل إنسان من المؤمنين نصيبا مفروضا لقوله : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض... ﴾ الآية . وفى رواية لابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ قال : يعنى فى الميراث ، جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء ﴾ ما لكم من ميراثهم من شيء ﴿ حتى يهاجروا ﴾ (١) وإن استنصروكم فى الدين ﴿ يعنى : إن استنصر الأعراب المسلمون المهاجرين والأنصار على عدو لهم فعليهم أن ينصروهم إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فكانوا يعملون على ذلك حتى أنزل الله هذه الآية : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ فنسخت الآية التى قبلها ، وصارت الموارث لذوى الأرحام .

وأخرج أبو عبيد وأبو داود وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى هذه الآيات قال : كان المهاجر لا يتولى الأعرابى ولا يرثه وهو مؤمن ، ولا يرث الأعرابى المهاجر ، فنسختها هذه الآية : ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ (٢) .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عنه أيضا قال : قال رجل من المسلمين : لنورثن ذوى القربى منا من المشركين ، فنزلت : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء

(٢) أبو داود فى الفرائض (٢٩٢٤) .

(١) فى المطبوعة : « يهاجرون » .

بعض إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير»^(١) . وأخرج أحمد وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «المهاجرون بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة ، والطلاق من قريش ، والعنقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة»^(٢) . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن أسامة عن النبي ﷺ قال : «لا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافرا ، ولا كافر مسلما» ثم قرأ : ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ...﴾ الآية^(٣) .

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله فينا خاصة معشر قريش : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم فأخونا ، فأخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وأخى عمر فلانا ، وأخى عثمان بن عفان رجلا من بنى زريق بن أسعد الزرقى ، قال الزبير : وأخيت أنا كعب بن مالك ، ووارثونا ووارثناهم ، فلما كان يوم أحد قيل لى : قد قتل أخوك كعب بن مالك ، فجتته فانتقلته فوجدت السلاح قد ثقلته فيما يرى ، فوالله يا بنى لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى ، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار ، فرجعنا إلى موارثنا^(٤) . وأخرج أبو داود الطيالسى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض ، حتى نزلت هذه الآية : ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب^(٥) .

(١) ابن جرير ٣٩/١٠ .

(٢) أحمد ٣٦٣/٤ ، وصححه الحاكم ٨١/٤ ووافقه الذهبي .

(٣) صححه الحاكم ٢٤٠/٢ ووافقه الذهبي .

(٤) صححه الحاكم ٣٤٥/٤ ووافقه الذهبي .

(٥) أبو داود الطيالسى (٢٦٧٦) والطبرانى (١١٧٤٨) وقال الهيثمى فى المجمع ٣١/٧ : « ورجاله رجال الصحيح ».